الأمثال وتوظيفها
في
الشعر الجاهلي

دكتور
أمين إسماعيل توفيق بدران
مدرس الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بالمنوفية

تقديم

الحمد لله مبدأ كل حمد ومنتهاه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه ومن اقتفى أثره وتبع هداه.

وبعد.. فللنثر حق مساءلة المعنيين بالأدب في هضم حقه، إذ كانت العناية به ضئيلة إذا ما قيست بقسيمه الشعر الذي كان له القدح المعلى في البحث والدرس.

وإذا ما استدركت طائفة من دارسي الأدب ذاك القصور فيممت وجهها صوب النثر فإنها عرفت بعضه وأعرضت عن بعض؛ إذ لم تسوِّ المعاملة بين إخوة ينتسبون إلى رحم واحدة، فحظيت الخطابة والكتابة بما لم تحظ به الحكم والأمثال.

وتأتي هذه الدراسة المطروحة بعنوان (الأمثال وتوظيفها في الشعر الجاهلي) لتسليط الضوء على فن الأمثال بما اشتمل عليه من قيم تاريخية واجتماعية وفنية، ولم شمل قسيمين يردان إلى أصل واحد (وهما الشعر والنثر) بعدما اتسعت بينهما الهوة، وذلك من خلال الوقوف على مدى قدرة الشاعر الجاهلي على توظيف الأمثال في شعره، وتضمينها إبداعه.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتكون من مبحثين مسبوقين بمقدمة، ومذيلين بخلاصة متضمنة أبرز النتائج.

أما المبحث الأول فجاء بعنوان (الأمثال وقيمتها الأدبية) وفيه يعرض لمفهوم المثل، ونشأته، وأهميته، وأنواعه، وأبرز خصائصه، وعلاقة المثل بالشعر تأثراً وتأثيراً.

وأما المبحث الثاني فتحت عنوان (توظيف الأمثال في الشعر الجاهلي)، ومن خلاله يُتعرف على سياقات التوظيف وهي السياق التاريخي، والسياق القصصي، والسياق التعليلي، والسياق التشبيهي، والسياق التفضيلي، والسياق المجازي من استعارة وكناية.

وأما عن المنهج الذي سلكه البحث فهو يجمع بين التأصيل التاريخي، والوصف التحليلي، والتأويل التعليلي، والتضوئ الفني، لتلك الأمثلة التي تم استقراؤها بعد تتبعها في مصادرها ومظانها.

ولئن كان العرض غير مرض فحسب تلك الدراسة أنها تفتح الطريق أمام دراسات تحسن الطرح، وتعيد القراءة، وأنها حاولت أن تنفض الغبار عن فن طالما عانى من التهميش والتسطيح. والله من وراء القصد

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مفهوم المثل:

للمثل تعريفات شتى، لكنها لا تخرج عن دورانه على معنى التشبيه والقياس ؛ أي مضاهاة موقف حاضر – وهو ما يعبر عنه بالمضرب – بموقف غابر – وهو ما يعرف بالمورد – عن طريق الاستدعاء. ويؤصل أبو هلال العسكري للمثل إذ يقول:

" أصل المثل: التماثل بين الشيئين في الكلام كقولهم: كما تدين تدان، وهو من قولك: هذا مثل الشيء ومثله، كما تقول شبهه وشبهه، ثم جعل كل حكمة سائرة مَثَلاً. وقد يأتى القائل بما يحسن أن يتمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلا»[(١)].

ولا تبعد الدلالة اللغوية عن التعريفات الاصطلاحية التي تتكئ على استناد المثل على التشبيه على نحو ما أورده الراغب الأصفهاني في قوله:

«المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره نحو قولهم: «الصيف ضيعت اللبن»، فإن هذا القول يشبه قولك: «أهملت وقت الإمكان أمرك». قلت: وتلخيص القول في هذا المقام:

إن المثل هو قول يرد أولاً لسبب خاص، ثم يتعداه إلى أشباهه فيستعمل فيها شائعاً ذائعاً على وجه تشبيهها بالمورد الأول» [(٢)]

ويعلل ابن رشيق لسر تسمية المثل بقوله:

«إنما سمى مثلاً لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبداً، يتأسى به، ويعظ ويأمر ويزجر، والماثل: الشاخص المنتصب، من قولهم: «طلل ماثل» أي شاخص» [(٣)].

ومن مجموع التعريفات اللغوية والاصطلاحية تبرز قسمات فن الأمثال واضحة جلية، إذ لا يتداخل مع فنون أدبية أخرى كالحكم التي لا تتقيد بأحداث ومواقف.

---

(١) جمهرة الأمثال أبو هلال العسكري – تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش – ٢/١ – ط / المؤسسة العربية الحديثة – القاهرة – الأولى ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.

(٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود اليوسي، تح/ د. محمد حجي، د/ محمد الأخضر: ٥/١، نشر دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

(٣) العمدة، ابن رشيق، تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد، ٩٢/١، ط دار الجيل، بيروت، الرابعة، ١٩٧٢م.

وقد حذر أحد الدارسين من الخلط بين المثل وسائر أنواع الكلام الأخرى التي يمكن أن تتشابه معه إذ يقول:

«إن هناك فرقاً بين الأمثال وبين أقوال العرب وكلماتهم السائرة، ومن ثم فلا ينبغي أن يلتبس علينا الأمر فنخلط بين الأمثال وغيرها من أنواع الكلام، ونقع فيما وقع فيه بعض الباحثين المعاصرين ؛ إذ عد أقوال العرب وكلماتهم السائرة أمثالاً» (١).

ولعل أقرب الفنون رحماً بالأمثال فن الحكم؛ فبينهما عموم وخصوص فالحكمة أعم من المثل، فبعض الأمثال يصلح أن يكون حكماً، وبعضها لا يصلح، ومما يجمع بينهما «أن الأمثال والحكم هي سلسلة طويلة من تراكم الخبرات، مضغوطة في كلمات قليلة، وهي ليست مقتصرة على شعب دون آخر، بل إننا نجد في بعض الأوقات أنها مشتركة بين ثقافات وشعوب متعددة بالرغم من اختلاف بيئاتها وتجاربها وبعد المسافة بينها، ذلك لأنها تعبر عن معاني إنسانية مقترنة بالوجود البشري العام» (٢).

ومما يفترق فيه المثل عن الحكمة فروق ثلاثة ذكرها اليوسي:

«أحدها: أن الحكمة عامة في الأقوال والأفعال، والمثل خاص بالأقوال. ثانيها: أن المثل وقع فيه التشبيه كما مر، دون الحكمة. ثالثها: أن المقصود من المثل الاحتجاج، ومن الحكمة التنبيه والإعلام والوعظ» (٣).

نشأة المثل:

من المعلوم أن لكل فن من الفنون ملابسات واكبت بداياته، وأسباباً عملت على ترسيخ جذوره وتثبيت أركانه. وتمتد أصول فن المثل إلى العصر الجاهلي، إذ أمدتنا المصادر الجاهلية بأرتال من الأمثال العربية، بل ربما لا نبعد عن الصواب إذا قلنا بأن معظم التراث المثلى مرده إلى الجاهليين، والإحصاء خير دليل على ذلك.

«واللافت في النظر في عناية القدماء بالأمثال أنهم – أول الأمر – عنوا بها لأسباب لغوية، وهذا هو السر في أن علم الأمثال نشأ في كنف اللغويين العرب،

---

(١) الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، د/ عبد المجيد قطامش، ص٢٥، ط دار الفكر، دمشق، الأولى ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

(٢) من مقال (الموروثات الشعبية كم فيها ثابت وكم فيها من متغير)، مجلة العربي، عدد (٣١٩) يونيو ١٩٨٥، ص٩.

(٣) زهر الأكم في الأمثال والحكم: ٩/١.

حتى ليندر أن تجد لغوياً لم يصنف في الأمثال، ثم ما لبث أن تطورت غايات في هذا العلم في القرن الثالث الهجري فاتجهت اتجاهاً أدبياً صرفاً، وعندئذٍ عرفت أمثال العامة والمولدين طريقها إلى التدوين في هذه المصنفات دون حرج لغوي. والجدير بالذكر كذلك أن أمثال العرب لم يكن يقصد بها لذلك العهد – أي إبان عصر الرواية والجمع والتدوين – غير الأمثال البدوية، فهي من هذه الناحية – على فصاحة لغتها وسمو تعبيرها – أمثال شعبية بالمعنى الدقيق – مفهوماً ووظيفة»[١].

ولعل من نافلة القول أن النثر الجاهلي – ومنه المثل – قد أصابه ما أصاب قسيمه الشعر من الضياع على حد قول أبي عمرو بن العلاء:

«ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير» [٢]. ولم يسلم من الضياع إلا ما كتب له البقاء عن طريق النقل والرواية والتدوين والتوثيق.

«فإذا رجعنا إلى أمثال العرب نجد أن عدداً كبيراً منها قد شاع في مجالس ملوك الحيرة وشيوخ القبائل، وهي تصور – في معظمها – الأمثال العربية القديمة، وتفسير ذلك أنها حظيت بالتدوين والظهور على مسرح التاريخ المكتوب بفضل اشتهارها على أيدي أصحاب السلطة، وبفضل تشجيع أصحابها على إذاعة هذه الأمثال وتدوينها، وكان ملوك الحيرة يسمحون في مجالسهم باجتماعات شعبية تضم عدداً من أفراد القبائل وشيوخها، وكانوا يستمعون إلى أحاديثهم ويشتركون فيها أحياناً، وكانت هذه الأحاديث موضع اهتمام العرب في مجالسهم وأسمارهم، يتلقفونها بشغف عظيم، وتجرى في أوساطهم مجرى الأمثال، من أجل ذلك كله نرى أن المثل بأشكاله المختلفة قد نشأ في بادئ الأمر ليكون لقباً خاصاً يخلع على بعض العبارات والصور المجازية التي صدرت عن الحكام أنفسهم، أو لقيت قبولاً أو شهرة في مجالسهم » [٣].

---

(١) من مقال «مصادر دراسة المأثورات الشعبية في التراث العربي» د/ محمد رجب النجار، مجلة / عالم الفكر، العدد الثاني، سبتمبر ١٩٩١، ص١٧٨.

(٢) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه/ محمود محمد شاكر: ٢٥/١، نشر/ دار المدني، جدة.

(٣) الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى، د/ عبد المجيد عابدين، ص٢٢، ط / دار المعرفة الجامعية ١٩٨٩م.

إن كثيراً من الأمثال الجاهلية حملت أسباب بقائها وتداولها بما اشتملت عليه من قيم فنية وأدبية وتاريخية واجتماعية، ولا تزال كياناً قائماً، ومصدراً أصيلاً من مصادر الثقافة العربية، ومكوناً من مكونات الذهنية العربية غير أنه «في ظل عوامل التغيير تتشبث موروثات غير قليلة ببقائها، وتسبب استمرار مأثورات شعبية في الاستعمال، فإذا كانت عوامل التغيير تؤدى إلى اندثار مأثورات كاملة، أو جزئيات أساسية من بعضها؛ فإن عوامل التثبيت تؤدى إلى اضطراد مأثورات أخرى وبقائها، بل إن الاندثار والتثبيت ليسا وحدهما التيارين اللذين يحيطان بالمأثورات الشعبية، هناك تيار التوليد الذي يأتي تلقائياً فتتلاءم الموروثات الشعبية مع ظروف الحياة المتغيرة، بأن تغير في ترتيب عناصرها، وتتولد عنها صيغ جديدة، أو يسقط منها ما لا يلائم الاستعمال في ظل الحياة الجديدة» (١).

أهمية المثل:

للمثل أهمية بالغة، ولا أدل على هذا من كثرة المؤلفات المعنية بجمع الأمثال العربية وتصنيفها، ونظراً لوثاقة الصلة بين الأمثال واللغة فلم يكن مستغرباً أن «احتفى العلماء الأوائل بأمثال العرب لحاجات لغوية صدرت عمن كانوا جبلتهم عربية ولغتهم سليقة، وبخاصة هؤلاء الذين لم يفارقوا البادية، وأمثال العرب من هذا المنظور اللغوي تراث شعبي بالمعنى الدقيق، وظل احتفاؤهم بها جمعاً وتوثيقاً حتى نهاية عصر الرواية والاستشهاد اللغوي، أي نهاية القرن الثاني الهجري، غير أنه مع بداية القرن الثالث الهجري بدأت أمثال المولدين والعوام من سكان المدن والأرياف والحواضر تتسرب على حياء إلى كتب الأمثال العربية، إما في مجال المقارنة، وإما في مجال تصحيح نحوي، أو تنقيح لغوي» (٢).

ولعل المفضل الضبي (١٦٨هـ) فى كتابه (أمثال العرب) في باكورة جامعي الأمثال العربية الذين خصصوا مؤلفات لجمع وتصنيف الأمثال، ومن أبرز المصنفات الرائدة في كتب الأمثال:

---

(١) من مقال (المأثورات الشعبية والعالم المعاصر)، أحمد رشدي صالح، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الأول، إبريل، مايو، يونيو، ١٩٧٢، ص٦٥.

(٢) من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي – د/ محمد رجب النجار، ٨٩/١، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة (٨٣) أكتوبر ٢٠٠٣م.

(كتاب الأمثال) لمؤرج السدوسي (١٩٣هـ)، و(كتاب الأمثال) لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣هـ)، و(كتاب الأمثال) لأبي عكرمة الضبي (٢٥٠هـ) و(الفاخر) للمفضل بن سلمة بن عاصم (٢٩١هـ)، و(الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة) لحمزة بن الحسن الأصبهاني (٣٥١هـ)، و(كتاب الأمثال) لزيد بن رفاعة الكاتب (٣٩٠هـ)، و(جمهرة الأمثال) لأبي هلال العسكري (٣٩٨هـ)، و(التمثيل والمحاضرة – ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) وهما للثعالبي (٤٢٩هـ)، و(مجمع الأمثال) للميداني (٥١٨هـ)، و(المستقصى في أمثال العرب) للزمخشري (٥٣٨هـ)، وغير ذلك مما هو مبثوث في تضاعيف المؤلفات الأدبية والتاريخية واللغوية.

«ومن الجدير بالذكر أن الأهداف المعلنة والغايات الكامنة وراء العناية بهذا العلم كانت أهدافاً وغايات أول الأمر، ولهذا لا غرو أن يكون جامعو الأمثال العربية قديماً من علماء اللغة وغريبها، وهذا يعني آخر الأمر أن علم الأمثال عند العرب قديماً قد نشأ وترعرع فى كنف اللغويين والعلوم اللغوية، ولكن سرعان ما استقل بغاياته وأهدافه الأساسية، وانضم إلى قائمة العلوم الأدبية بعد ذلك بقرنين من الزمان » [١].

وتكمن أهمية الأمثال في أنها صورة حية لواقع البيئة، وانعكاس لأحوال وعادات وقيم المجتمعات الإنسانية، وسجل حافل لأطوار التطور التي تمر بها الأجناس، ونبع ثر لمعرفة ثقافات الشعوب وتوجهاتها.

«وبما أن الأمثال ينعكس فيها شعور الشعوب وتفكيرها وعاداتها وتقاليدها وخبراتها، كما تعبر عن الفئات الاجتماعية التي تنطقها بما تريد أن تقول، أو تضمنها مواقفها ومصالحها، لذلك فقد أصبحت أحد المصادر المناسبة والمهمة لمعرفة نفسية أي شعب وتطوره الفكري والحضاري، وهذا النوع من الدراسات يمكن أن يكشف الحياة الفعلية والحضارية للأمة، ولا تستطيع أي مصادر أخرى – كالنقوش والتدوينات – أن تقدم ما تقدمه الأمثال من ثروة حقيقية للدراسة، وكمصدر لاكتشاف تلك الحياة وتحليلها في واقعها، وربما في احتمالاتها المستقبلية، وأصبحت الأمثال اليوم هي المصدر للدراسات العلمية والاجتماعية الكثيفة» [٢].

---

(١) من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي: ٦١/١.

(٢) من مقال (الموروثات الشعبية كم فيها ثابت وكم فيها متغير) مجلة العربي، عدد (٣١٩) يونيو ١٩٨٥م، ص١١.

وعلى الرغم من ندرة الدراسات المهتمة بالأمثال إذا قورنت بالدراسات الشعرية – وهو أمر طالما عانت منه مكتبة الدراسات الأدبية؛ إذ لم نجد في القديم مؤلفات كثيرة تعنى بجمع الأمثال ودراستها – فإن ثلة من المحدثين قد تنبهت إلى هذا القصور، وأخذت توجه الأنظار إلى العناية بهذا الفن، وإماطة اللثام عن ذلك الوجه المشرق من صفحات الأدب العربي. وبعد أن كان حظ المثل من الدارسين مجرد إشارات عابرة، أو لمحات خاطفة، أو حتى مباحث قصيرة، أصبحت هنالك دراسات مستقلة ومستوعبة ومتخصصة منها على سبيل المثال:

(الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية)، د/ عبد المجيد قطامش، و(الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى)، د/ عبد المجيد عابدين، و(الأمثال العربية القديمة)، رودلف زلهايم، تحقيق / د. رمضان عبد التواب، و(أمثالنا الموروثة قيمتها الأدبية والفكرية ودلالتها على شخصية الإنسان العربي) د/ أحمد عبيد، و(دراسات أدبية في الخطب والأمثال الجاهلية) د/ سليمان محمد سليمان، بالإضافة إلى الدوريات كمجلة عالم الفكر، ومجلة العرب، ومجلة العربي، وغيرها. وحسب تلك الدراسات أنها مهدت السبيل لفن لا تزال فيه مناطق مجهولة وأبعاد مهجورة.

إن الاهتمام بالأمثال نابع من إدراك أهميتها وتعدد أغراضها وتنوع وظائفها، «إن الوظائف التي تؤديها المأثورات أكثر تنويعاً وأشد تركيباً، فقد يلقى المثل أو تروى الحكاية في مجال التسرية والترويح عن النفس، وقد يلقى المثل نفسه والحكاية نفسها لغرض تعليمي، ثم قد يلقى المثل والحكاية لتحقيق غرض شارح، أو للسخرية، أو للتمييز أو عكسه، أو لإظهار المهارة الذهنية، أي أن المأثور الواحد تتعدد وظائفه بحسب اختلاف مجالات استعماله» (١).

أنواع المثل:

تنوعت تقسيمات المثل من منطلق الوجهة التي يعني بها كل دارس، فهناك تقسيم ناتج عن طريق الاستقصاء والحصر على نحو ما فعل أحد الدارسين المحدثين من استقراء معالم الأمثال في التراث العربي القديم إذ هداه استقراؤه إلى توصيف تلك الأمثال قائلاً:

(١) من مقال (المأثورات الشعبية والعالم المعاصر) أحمد رشدي صالح، مجلة عالم الفكر، المجلد الثالث، العدد الأول، إبريل، مايو، يونيو ١٩٧٢م، ص٧٣، ط الكويت.

«لدينا في التراث العربي القديم عشرة أنواع مثلية هي:
١- المثل القياسي التام (النثري).
٢- العبارة المثلية أو التعبير المثلي.
٣- المثل الجحوى الساخر.
٤- المثل القصصي (الخرافي) على لسان الحيوان.
٥- المثل القرآني. ٦- المثل النبوي. ٧- المثل الشعري. ٨- المثل اللغزي
٩- المثل المولد أو العامي ١٠- المثل الكتابي (المنقول) »[١].

وقد أفرد الدارس لكل نوع مبحثاً ذاكراً خصائص كل نوع وما يمتاز به عن غيره ولعل المثل النثري والمثل القصصي والمثل الشعري أقرب الأنواع رحماً إلى تلك الدراسة المنحصرة في العصر الجاهلي.

وهناك تقسيم للمثل من حيث الحقيقة والخيال؛ إذ إن من الأمثال ما هو واقعي حقيقي جاء إثر أحداث حقيقية ووقائع معينة، ومنها ما هو افتراضي احتمالي على حد قول د/ إبراهيم عوضين:

«و كما يشير المثل إلى موقف واقعي، قد يشير إلى حادثة مفترضة يقصد بها الوصول إلى عقل سامعها وقلبه، فيتخيل أحداثها واقعة بين حيوانات أو أناسي أو جماد أو نحو ذلك، ومن ثم كان من الأمثال الحقيقي والافتراضي» [٢].

كما يمكن تقسيم المثل من حيث قائله ومصدره إلى مثل أدبي ومثل شعبي على نحو ما فرق الدكتور/ فتحي أبو عيسى بينهما ذاكراً خصائص كل نوع بقوله:

« إن الأمثال الأدبية التي صيغت صياغة أدبية راقية تختلف عن الأمثال الشعبية، من حيث إن الأمثال الأدبية تصدر عن عقل مثقف يلاحق الأحداث لا على المستوى المحلي فقط، بل على مستوى أشمل وأعم، فاقترانه بالكتابة والمعرفة وثيق، بخلاف المثل الشعبي الذي ينزع إلى البيئة يأخذ منها، ويعبر عن ذوقها وأوضاعها النفسية والاجتماعية، وربما كان هذا هو السر في أن الكثير الكاثر من الحكم والأمثال لا يعينون قائلها، وهذا طبيعي لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من

(١) من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي: ٧٥/١.
(٢) الأدب العربي بين البادية والحضر، د/ إبراهيم عوضين، ص٣٣٢، ط / مطبعة السعادة، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

عامة القبائل ممن لا يمجدون ولا يحفل بهم الناس، وهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم» (١).

وبالنظر في التراث المثلي لوحظ «أن الأمثال التي ظفرت بالتدوين هي في معظمها من ذلك النوع الرسمي (التعليمي) الذي كان أسعد حظاً من النوع الشعبي في ذلك المضمار، فقد كان التدوين في أيدي فئة خاصة من الكتاب والحكماء وأصحاب التعاليم، فلم يحظ المثل الشعبي من عنايتهم إلا بالشيء القليل، ومع ذلك فإن الأمثال الشعبية – على قلة ما دون منها في النقوش والآثار القديمة – تمثل اتجاهاً قديماً في تاريخ الشعوب» (٢).

– وهناك تقسيم زمني تاريخي كما صنع رودلف زلهايم فيقول:

«تنقسم الأمثال العربية بحسب أعمارها إلى ثلاثة أقسام:

١– الأمثال القديمة. ٢– الأمثال الجديدة أو الأمثال المولدة: وهي التي جمعت وأضيفت إلى الأمثال القديمة في مجموعات الأمثال منذ القرن الرابع الهجري.

٣– الأمثال الحديثة: وهي التي جمعها الأوروبيون قبل غيرهم في القرن التاسع عشر، والقرن العشرين من سوريا وفلسطين ومصر وغيرها من الدول العربية ونشروها» (٣).

وهناك تقسيم يلحظ فيه مدى اعتماد المثل على الفن من عدمه، كما ألمح إلى ذلك رودلف زلهايم إذ يقول:

«إذا فحصنا مادة الأمثال المجموعة في كتب الأمثال فإننا نلاحظ أن كلمة (مثل) لا يراد بها التعبير التصويري فحسب؛ إذ يوجد بين هذه الأمثال حكم تجريدية غير تصويرية كذلك، ومجموعة من الأمثال التشبيهية أو التفضيلية (أفعل من)، هذا إلى بعض العبارات الثابتة الجامدة التي تصف نموذجاً إنسانياً أو موقفاً خاصاً بدقة وبراعة ويتداولها الاستعمال» (٤).

---

(١) مطارحات وقضايا في الأدب الجاهلي، د/ فتحي محمد أبو عيسى، ص٣٣٣، ط ١٤١٩هـ – ١٩٩٨– ١٩٩٩م.

(٢) الأمثال في النثر العربي القديم، د/ عبد المجيد عابدين، ص١٦.

(٣) الأمثال العربية القديمة، رودلف زلهايم، ترجمة وتحقيق وتعليق د/ رمضان عبد التواب، ص٤٣، ط دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى، ١٣٩١هـ– ١٩٧١م.

(٤) السابق، ص٢٦.

وثمة تقسيم للمثل يراعي فيه المتلقى من حيث ظهورمعنى المثل لديه أو خفاؤه عنه، ونلحظ هذا التقسيم عند القلقشندي إذ قسم المثل إلى قسمين:

«قريب الفهم بظهور معناه، وكثرة دورانه بين الناس، وبعيد الفهم لخفائه وقلة دورانه بين الناس. فالقريب من الفهم الكثير الدوران على الألسنة مثل قولهم «عند الصباح يحمد القوم السرى» وهو مثل يضرب للترغيب في السير في الليل والحث عليه...، والبعيد من الفهم مثل قولهم «إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر» وهو مثل يضرب لمن ينكر الأمر الظاهر عناداً، والأصل في ذلك كما ذكره المفضل بن سلمة الضبي أن بني ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية تراهنوا على الشمس، فقالت طائفة: تطلع الشمس والقمر يُرى، وقالت طائفة: يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس، فتراضوا برجل جعلوه بينهم حكماً، فقال واحد منهم: إن قومي يبغون عليَّ، فقال الحكم: إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر، فجرت مثلاً. ومن المعلوم أن قول القائل: إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر إذا أخذ على حقيقته من غير نظر إلى القرائن المنوطة به، والأسباب التي قيل من أجلها، لا يعطي من المعنى ما قد أعطاه المثل، بل ما كان يفهم هذا القول معني يفيد لأن البغي هو الظلم، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحداً، فكان يصير معنى المثل: إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر، وهو كلام مختل المعنى ليس بمستقيم»[(١)].

ومن منطلق تقسيم القلقشندي يفهم أن المثل القريب الفهم هو الذي لا يحتاج في فهمه إلى كدِّ الذهن وإعمال الفكر، بل هو متاح، ومن اليسير توظيفه في كل معنى مشابه مثل (قبل الرماء تملأ الكنائن) فالشبه بين المعنى الأصلي المحسوس، والمعنى المعقول المشابه – وهو الاستعداد للأمر قبل حدوثه – جد قريب، يتوصل إليه بشيء من التفكر وقليل من التأمل.

وأما المثل البعيد الفهم فهو الذي لا يفهم معناه – ومن ثم استعماله في الموقف المشابه له – إلا بالرجوع إلى أصل إطلاقه، ومعرفة ملابساته، بل لا يصح أن يطلق إلا بين أناس يعرفون أصل استعماله ودلالته، وإلا كان إطلاقه ضرباً من التعمية ولوناً من الإلغاز ومن أمثلته: (إنه لصل أصلال هتر أهتار)، (عي بالإسناف)، (سلكى ومخلوجة)... إلخ فأمثال تلك الأمثال بعيدة الغور شديدة الخفاء

(١) صبح الأعشى في كتابة الإنشا، القلقشندي، تح/ عبد القادر زكار: ٣٤٨/١، ط وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م.

لا تفهم إلا بمعرفة سياقها. على أن القرب والبعد نسبيان بحسب حال المخاطب وثقافته وميوله، فما قد يكون بعيداً عن متلق يكون قريباً لآخر.

- خصائص المثل:

لعل من أبرز سمات المثل وأظهر خصائصه:

١- السيرورة: إذ لا يصح إطلاق لفظ (المثل) إلا على قول ذاع وانتشر، وتردد في المحافل، وتناقلته الألسنة، واستعملته في المواقف المشابهة لأصل الإطلاق، فالمثل كسهم انطلق يظل محلقاً حتى يوافق المرمى المناسب، ويصيب الهدف الذي من أجله أرسل، بل يتجاوز المثل حدود الزمان والمكان ويتأبى على التقيد والتمركز وما ذلك إلا «لأن المثل لا يعرف حدوداً ينقطع عندها أو يختفى، وإنما ينتقل إذا أتيحت الفرصة والمجال له من شعب إلى آخر، لا تحده موانع، أو تقيده عوائق جغرافية أو بشرية أو طبيعية، بل إن المثل كائن حي حر، ممتد في زمن يختلط فيه الماضي بالحاضر، ويحيا في مستقبل لا يعرف حدوده إلا الله» (١).

ويجعل أبو هلال العسكري الشعر الجيد محمولاً على المثل في الذيوع والانتشار، بيد أن ذيوع الشعر مرهون بجودته، أما المثل فهو سائر دون قيد، فيقول:

«وليس شيء أسير من الشعر الجيد، وهو في ذلك نظير الأمثال، وقد قيل: لا شيء أسبق إلى الأسماع، وأوقع في القلوب، وأبقى على الليالي والأيام من مثله سائر، وشعره نادر» (٢).

وقد يكون لأجناس الأدب الأخرى ما للمثل من العمق وبعد الغور في تحقيق المعاني وترسيخ المفاهيم، غير أنه يبقى للأمثال أنها «وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني، تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء سيرها، ولا عم عمومها» (٣).

---

(١) الطفل في التراث الشعبي، د/ لطفي حسين سليم، ص٦٧، ٦٨، مكتبة الدراسات الشعبية (٤٩)، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٠م.

(٢) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح/ د. مفيد قميحة، ص١٥٥، ط/ بيروت، دار الكتب العلمية، الأولى ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

(٣) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، ٥/٣، ط / دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

كما أن انطلاق الأمثال عبر فضاءات رحبة، وآفاق متباينة، يجعل لها تميزاً وحضوراً على حد قول الزمخشري:

«ولأمر ما سبقت أراعيل الرياح، وتركتها كالراسنة في القيود، بتدارك سيرها في البلاد مصعدة ومصوبة، واختراقها الآفاق مشرِّقة ومغربة، حتى شبهوا بها كل سائر أمعنوا في وصفه، وشارد لم يألوا في نعته» (١).

وتتباين الأمثال في دورانها كثرة وقلة، فليست على وتيرة واحدة إذ «إن بعض الأمثال يؤتى حظاً موفوراً من الشهرة يجعله يطبق الآفاق، ويتغلغل في أعماق الأزمنة والعصور، وإن بعضها يكون أقل حظاً بحيث ينحصر في بلد عينه، أو في عصر بعينه، أو في بيئة من الناس كالزراع والتجار والنساء، وليس مرد هذا الأمر إلى جودة المثل أو رداءته وحدهما، بل هناك أسباب أخرى قد يكون من أهمها اختلاف البيئات، وتنائي الديار والأقطار، واختلاف المجتمعات والآفاق، على أن الجاحظ يذكر سبباً لهذه الظاهرة وهو أن العامة قد تؤثر مثلاً أدبياً من الشعر على ما عداهما، لأنها أخف على ألسنتهم، وذلك حيث يقول: «و العامة ربما استخفت أقل اللغتين» (٢).

ويدلى المحدثون بدلوهم في الوقوف على سر سيرورة المثل، وانتشاره عبر الآفاق، واختراقه الحدود والأسوار، يقول د/ قطامش:

«ولا نجد كلاماً أكثر دوراناً على الألسنة والأقلام من الأمثال، ومرد ذلك إلى أمرين: هما: ما تتضمنه الأمثال من خبرات ومعان صائبة، وما تمتاز به على سائر أنواع الكلام من إيجاز شديد، وهاتان الميزتان جعلتاهما أخف على الألسنة وأعلق بالأسماع والأفئدة، كما جعلتاهما أيضاً أطول عمراً من غيرها في نفوس الناس وذواكرهم» (٣).

وأمر ثالث تنبه إليه أحد الدارسين يتعلق ببنية المثل الإيقاعية إذ يرصد بعض الظواهر اللغوية التي تؤدى إلى التجانس الصوتي فيقول د/ أحمد عبيد: «والاتباع والمزواجة كثيران في الأمثال، وكثرتهما تدل على خاصية لغوية وثيقة بالأمثال، وهي توقيعها على نظام صوتي معين، يساعد على جعلها خفيفة على الأسماع،

(١) المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، ٣/١، ط / دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية.
(٢) الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، د/ عبد المجيد قطامش، ص٢٧١.
(٣) السابق، ص٢٥٠.

وبالتالي تحصل الغاية المقصودة منها وهي السيرورة والانتشار، وترديد الناس لها في مناسباتها، فإذا كان الشاعر ينظم كلامه في إطار نغمي موسيقي؛ فإن المتكلم بالحكم الصائبة، أو الكلمة المأثورة ذات المغزى المؤثر والدلالة العميقة قد حرص على إرسالها في عبارة موقعة وإن اختلف نمط إيقاعها عن نمط الشعر، ففيها من التجانس الصوتي ما يكفل لها الرسوخ في الأفهام وإيناس العقول» (١).

ولا يستغرب بعد ذلك أن تكون سيرورة المثل إحدى أسرار بلاغته على نحو ما ذكره التوحيدي قال:

«وقال أبو سليمان: وأما بلاغة المثل فأن يكون اللفظ مقتضباً، والحذف محتملاً، والصورة محفوظة، والمرمى لطيفاً، والتلويح كافياً، والإشارة مغنية، والعبارة سائرة»(٢).

٢- الثبات:

لا يتصرف في المثل، ولا يغير عن أصله المنقول عنه، ولا تبدل صيغته فلا تحول من المذكر إلى المؤنث مثلاً، أو من المفرد إلى الجمع... إلخ

«فالصيغة على الأقل عنصر أساس في شعبية المثل وأصالته، وإذا فقد المثل طابعه الشكلي فقد أهدر ركناً هاماً من أركان شعبيته وأصالته، ولقد أدرك الرواة أهمية الصيغة في المثل فحافظوا على رواية صيغة المثل كما سمعوها ولو كان فيها ما يخالف العربية، ولم تكن لديهم حيلة في رد بعض ما أصاب الأمثال من تصحيف وتحريف وتغيير صرفي، فهذا راجع في الأغلب الأعم إلى طبيعة الكتابة العربية ولهجات الناطقين بالعربية، وفيما عدا ذلك حرصوا على الصيغة التي تلقوها عن الأسلاف» (٣).

ولعل التصرف في المثل وتغيير صيغته يفقده قيمته، وقد يؤدى التغيير في المثل والتجوز فيه إلى إخفاء معالمه، بل ربما إلى اندثار أوليته، ومن ثم كان الحفاظ على الأصل الأول للمثل معلماً من معالم هذا الفن القولي «وأما أن الأمثال غيرت

---

(١) أمثالنا الموروثة قيمتها الأدبية والفكرية ودلالتها على شخصية الإنسان العربي، د/ أحمد عبد الغفار عبيد، ص٨٩، نشر / دار المعرفة الجامعية.

(٢) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تح/ محمد حسن إسماعيل، ٣٠٦/١، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

(٣) الأمثال في النثر العربي القديم، د/ عبد المجيد عابدين، ص٨٦.

وهذبت فهذا مردود بأن الأمثال لا تغير، حتى ما جاء منها مخالفاً في ظاهره لأصل الوضع اللغوي يترك على حالها كقولهم: (مكره أخاك لا بطل) لأن أي تغيير يطرأ على المثل يذهب بالصورة الواردة معه من مورده، والتي يراد استحضارها ومحاذاتها بمناسبة ذكره (مضربه) للعبرة، فكيف يتأتى مع كل ذلك الادعاء بأن الأمثال غيرت وهذبت) [(١)].

ومما يؤكد الحرص على نقل المثل بصيغته وعدم التصرف فيها أنه قد يُهمل الضبط الإعرابي والقياس النحوي من أجل الإبقاء على صورة المثل المحكية، وقد ضرب المرزوقي مثلاً لذلك وهو بصدد حديثه عن المثل إذ يقول:

«من شرط المثل ألا يغير عما يقع في الأصل عليه، ألا ترى أن قولهم (أعط القوس باريها) تسكن ياؤه، وإن كان التحريك هو الأصل لوقوع المثل في الأصل على ذلك، وكذلك قولهم (الصيف ضيعت اللبن)، لما وقع في الأصل للمؤنث لم يغير من بعد وإن ضُرب للمذكر»[(٢)].

وينقل العسكري عن القدامى ربطهم بين الحفاظ على أصل المثل وبين وروده على طريق الحكي فيقول:

«ويقولون: الأمثال تحكي، يعنون بذلك أنها تضرب على ما جاء عن العرب ولا تغير صيغتها، فتقول «الصيف ضيعتِ اللبن، فتكسر التاء لأنها حكاية» [(٣)].

وإذا ورد المثل في الشعر فإنه –في سبيل الإبقاء على صورة المثل– قد يجنح الشاعر إلى الضرورة الشعرية، يقول المرزوقي – بصدد حديثه عن الأمثال –:

«واستجيز من الحذف ومضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام» [(٤)].

---

(١) أكثم بن صيفي ومأثوراته، د/ كاظم الظواهري، ص٢٢، ط دار الصابوني، الهداية، الأولى ١٤١٢هـ– ١٩٩١م.

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تح/ فؤاد على منصور، ٣٧٦/١، ط / الأولى، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ– ١٩٩٨م.

(٣) السابق الجزء والصحفة ذاتهما.

(٤) المزهر، السيوطي، تح/ محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوي، ٤٨٦/١، ط / الحلبي.

ويقول البكري: «والأمثال موضع إيجاز واختصار، وقد ورد فيها من التوسع والحذف ما لم يجئ مثله إلا في أشعارهم» (١).

ويرى الزمخشري أن السر في المحافظة على صيغة المثل يكمن في تميزه وتفرده يقول:

«ولم يضربوا مثلاً، ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جديراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه؛ ومن ثم حوفظ عليه، وحمي من التغيير» (٢).

هذا عن صيغة المثل، أما مضمونه فإنه يستعصي على التحريف ويتأبى على النسيان وهذا هو الذي ضمن للمثل البقاء، وحماه من أن يصبح طي النسيان يقول د/ لطفي حسين:

«والأمثال حين تنتقل بين الشعوب تتمسك بثباتها وصياغتها قدر الإمكان، وإذا حدث تغيير لها أو تحريف فإنما يمس بناءها اللغوي، أو عباراتها في لفظ أو أكثر، لكن مضمون المثل أو معناه، وفكرته وهدفه فهي الجذور التي يتشبث المثل بها ضد عوامل التعرية أو الشتات أو التمزق» (٣).

- الكنايـة:

يمتاز المثل بأن المعنى المراد طرحه من خلاله لا يكون مصرحاً به، بل يكنى عنه من خلال استدعاء صورة وحالة سالفة تشبه وتضارع الحالة الراهنة «وتكتسب المعاني المرادة من الأمثال بهذه الكناية وضوحاً وإشراقاً، وتكتسي حللاً زاهية من الجمال والبهاء» (٤).

ولا يخفى ما للكناية من بلاغة لا تتحقق في المعنى المسوق في صورة تقريرية مباشرة، وعن طريق المثل يتضح الغامض، وينجلي المبهم «فنحن نرى أن الإنسان يذكر معنى، ولا يلوح كما ينبغي، فإذا ذكر المثال اتضح وصار مبيناً مكشوفاً» (٥)

---

(١) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، تح/ د. إحسان عباس، د. عبد المجيد عابدين، ص ١٠٧، ط دار الأمانة، مؤسسة الرسالة.

(٢) الكشاف، الزمخشري، تح/ محمد صادق قمحاوي: ١٠٩/١، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي ١٣٩٢هـ.

(٣) الطفل في التراث الشعبي، ص٦٨.

(٤) الأمثال العربية، د/ قطامش، ص٢٦٩.

(٥) إعجاز القرآن، الأمثال، د/ حسين نصار، ص٤٠، ط/ مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م.

ويجعل إبراهيم النظام جودة الكناية إحدى خصائص المثل فيقول:
«يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة» (١).
واشتمال المثل على الكناية كلون بياني يسهل حفظ المثل وتداوله على حد قول د/محمد رجب النجار:
«ومن نافلة القول أن الأمثال تنتمي إلى النثر الشفاهي الذي ينتمي بدوره إلى الثقافة الشفاهية، وحتى يسهل حفظها وتداولها شفاهياً عمد مبدع المثل – ذلك العبقري المجهول – إلى توقيعها وتنغيمها وحشدها بضروب البيان والبديع» (٢).
وتبع استعمال الكناية في المثل اعتماده على الرمز والإيحاء اللذين يستلزمان الإيجاز والاختصار، يقول القلقشندي:
«وأما الأمثال الواردة نثراً فإنها كلمات مختصرة تورد للدلالة على أمور كلية مبسوطة، وليس في كلامهم أوجز منها، ولما كانت الأمثال كالرموز والإشارة التي يلوح بها على المعاني تلويحاً صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا» (٣)
ويقول أبو عبيد بن القاسم بن سلام:
«الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها فتبلغ ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية (غير تصريح)، فتجتمع لها بذلك ثلاث خلال:
إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه» (٤).
ومعلوم أن المعنى الذي يأتي عن طريق التلميح والتلويح والتعريض والرمز أبلغ أثراً من المعنى الذي يأتي في صورة تقريرية مباشرة، ومن ثم يصبح للأمثال ميسمها الخاص الذي تدل به على المعاني، يقول د/ أحمد عبيد:
«من الميزات الأسلوبية للأمثال اعتمادها أسلوب الرمز لتأدية مضمونها المراد، فالمثل يؤدى معناه في كثير من الأحيان دون التصريح بالمعنى المراد، وهذا النمط

(١) الإمتاع والمؤانسة، ص٣٠٦.
(٢) من فنون الأدب الشعب في التراث العربي، د/ محمد رجب النجار، ص٨١.
(٣) صبح الأعشى، ٢٩٥/١.
(٤) أمثالنا الموروثة د/ أحمد عبيد، ص١٠٧ (سابق).

من الأداء التعبيري يعد معرضاً لثراء اللغة ونباهة المتحدثين، ويشكل عنصراً من عناصر عطائها الفني» [١].

وعلى الرغم من اعتماد المثل على الرمز والإيحاء فإن ذلك لم يحل بينه وبين تحقيق الألفة بين الأفراد والجماعات التي تتناقل المثل على اختلاف ثقافاتهم، ومعلوم «أن الألفة الشعبية ركن هام من أركان المثل الشعبي، ولا تأخذ العبارة حكم المثل الشعبي إلا إذا كانت نابعة من الجماهير، أو تكون مقبولة لديهم بحسبانها حقيقة» [٢]

والأمثال أكثر استدعاء وحضوراً، وأقرب استشهاداً من غيرها، وأكثر قبولاً وتداولاً بين قطاع عريض من الناس – رغم اتكائها على الكناية – حتى ترددت في الأفواه وشاعت على الألسنة عبارة (على رأي المثل)، وما ذلك إلا لأن الأمثال أصابت المحز وطبقت المفصل كما يقال.

«ودوران الأمثال على مختلف الألسنة يحول دون أن يفهم من الغرابة فيها مجرد والغموض ؛ إذ كيف يمكن أن يفترض أن الناس تردد باعتزاز ما لا تعيه ولا تفهمه، فضلاً عن أن تنشأه وتضربه متباهية؟! » [٣].

بين المثل والشعر:

ثمة علاقة بين الشعر والمثل، فهما لونان أدبيان، وإن كان لكل منهما خصائص معينة «فإذا وضعنا المثل بإزاء الشعر الذي هو أبرز آثار العرب القولية استطعنا أن نلمس الفارق بينهما في واقعية التعبير عن الحياة، فالشاعر يتزيد أو يبالغ، أما قائل المثل فإنه يصور الواقع دون تزيين أو تحسين، والفارق كبير بينهما في ميدان التثبت والتحقيق، ومن ثم تنكشف أهمية الأمثال وقيمتها التاريخية» [٤].

ولكم حاول دارسو الأمثال تلمس فوارق بينها وبين الشعر وفق رؤية ذاتية على نحو ما أشار أحد الدارسين إلى ملامح الاختلاف بين اللونين قائلاً:

«الأمثال صادقة في التعبير عن الحياة، لا تتأثر في هذا بعاطفة، ولا تجنح إلى خيال أو مبالغة أو تهويل، وإنما تصف الواقع بما هو عليه، وبعد تدبر فيه وتأمل

---

(١) الأمثال – أبو عبيد القاسم بن سلام، تح/ عبد المجيد قطامش، ص٥، ط/ دار مأمون للتراث، دمشق.

(٢) الأمثال في النثر العربي القديم، د/ عابدين، ص٨٥.

(٣) إعجاز القرآن، الأمثال، د/ حسين نصار، ص٨١.

(٤) أمثالنا الموروثة، د/ أحمد عبيد، ص٢٤.

لـه، وذلـك عكـس الـشعر الـذي يقـوم علـى العواطـف الثـائرة، والأخيلـة المجنحـة، والمبالغات الممقوتة التي تزيف الواقع وتشوهه أحياناً، ولهذا كانت الأمثال أصدق منه لهجة، وأكثر واقعية. وللأمثال قداستها في نفوس الناس، ولها سلطانها عليهم بمـا تتـضمنه مـن أحكـام يرتـضونها، ويجمعـون علـى الإذعـان لهـا حتـى إنهـم يستشهدون
بها في شتى المواقف فتصدع بالحق، وتحسم الخلاف، أو كما يقولون عنها: تصيب المخر، وتطبق المفصل» [١].

ولعل الخروج عن القياس اللغوي، والتعقيد النحوي، قاسم مشترك بينهما إذا ما دعت إلى ذلك ضرورة، أماط اللثام عنها د/ قطامش إذ يقول:

«الأمثال كالشعر يتحملان الضرورات، ويتسامح فيهما ما لا يتسامح في غيرهما من أنواع الكلام، أما الشعر فلأنه محكوم بوزن معين وقافية معينة قد يضطران الشاعر إلى الخروج عن قياس اللغة والنحو، وأما الأمثال فلأن العرب كانوا حريصين على أن يوفروا لها ضروباً من الحلى اللفظية كالسجع والازدواج وغيرهما حتى تكون أوقع في النفس، وأخف على السمع، فكان هذا يضطرهم أحياناً إلى الخروج عن القياس والتضحية بما جرت به عادة اللغة» [٢].

وإذا كان الشعر مقيداً بوزن وقافية لتحقيق النغم الإيقاعي، فإن من النثر الفني – ومنه المثل – ما يحقق قيماً موسيقية، وتوقيعاً نغمياً، على حد قول د/ أحمد عبيد:

«فإذا كان الشاعر ينظم كلامه في إطار نغمي موسيقي فإن المتكلم بالحكمة الصائبة أو الكلمة المأثورة ذات المغزى المؤثر والدلالة العميقة، قد حرص على إرسالها في عبارة موقعة، وإن اختلف نمط إيقاعها عن نمط الشعر، ففيها من التجانس الصوتي ما يكفل لها الرسوخ في الأفهام وإيناس العقول» [٣].

المثل الشعري:

ثمة علاقة تجمع بين فني المثل والشعر، ولا أدل على ذلك من تلك النظرات النقدية التي تحكم بالجودة للشعر الذي يحتوى على بعض الأمثال يقول اليوسي عن المثل: «وإن كان سائراً، لكنه إذا نظم كان أسير له وأسهل على اللسان وأحسن، ثم إنه قد يقع بيتاً كاملاً، وقد يقع نصف بيت أو ربعه، أو نحو ذلك من الأجزاء، وسئل حماد الراوية بأي شيء فضل النابغة؟ فقال: إن النابغة إن تمثلت ببيت من شعره اكتفيت،

(١) الأمثال العربية، د/ قطامش، ص٢٥٠.
(٢) السابق، ص٢٠٨.
(٣) أمثالنا الموروثة، د/ أحمد عبيد د، ص٨٩.

مثل قوله:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مطلب»[1]

ويقول ابن رشيق: «المثل السائر في كلام العرب كثير نظماً ونثراً، وأفضله أوجزه، وأحكمه أصدقه» [2].

وقد ذكر ابن رشيق بعض نماذج الشعر المشتملة على الأمثال إذ يقول:

«ومما لااحتياج فيه قول امرئ القيس:

الله أنجح ما طلبت به ... والبر خير حقيبة الرحل

ففي كل قسيم من هذين مثل غير محتاج إلى صاحبه، وكذلك قول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال عبيد بن الأبرص الأسدي:

الخير يبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ومما فيه مثل واحد قول عنترة العبسي:

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي ... والكفر مخبثة لنفس المنعم

فجاء بالمثل غير محتاج إلى ما قبله. قال أبو ذؤيب:

تركوا هوى وأعنقوا لهواهم ... فتخرموا ولكل جنب مصرع»(٣)

---

(١) زهر الأكم: ٢١/١.

(٢) العمدة: ٢٨٠/١.

(٣) العمدة، ٢٨٣/١، وبيت امرئ القيس في ديوانه، اعتنى به وشرحه / عبد الرحمن المصطاوي، ص٢٩، ط / دار المعرفة، بيروت، لبنان، الثانية ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م. وبيت الحطيئة في ديوانه، اعتنى به وشرحه / حمدو طماس، ص٨٦، طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان، الثانية، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م. وبيت عبيد بن الأبرص في ديوانه، ص١٥، ط / دار صادر بيروت، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م. وبيت عنترة في ديوانه، ص٨٣، ط/ رخصة مجلس معارف بيروت، نفقة خليل الخوري. وبيت أبي ذؤيب في ديوان الهذليين (شعر أبي ذؤيب وساعدة بن جؤية) ص٢، ط / مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الثانية ١٩٩٥م.

والمتأمل في الأمثال التي وردت في سياق الشعر يجد أن منها ما كان في الأصل شعراً، ثم انتقل من الشعر إلى قائمة الأمثال، بمعنى أنها اكتسبت صفة المثلية، وأصبح يستشهد بها في ميدان الأمثال، وربما تنوسي أصلها الشعري، ومنها ما كان في الأصل نثراً ثم وظفها الشعراء في أمثالهم اقتباساً وتضميناً، وهي من الكثرة بمكان إذ كانت نبعاً خصباً ومعيناً ثراً للشعراء إذ نظروا إليها، وواءموا بينها وبين شعرهم ليجمعوا بين جمال الشعر ورواء النثر، وستأتي نماذجها في مبحث التوظيف.

أما الأمثال التي أخذت من الأشعار، وربما ظن أنها في الأصل أمثال نثرية فهي قليلة تجدر الإشارة إليها، والنص عليها، كما ذكر ذلك جامعو الأمثال، ومنها:

– كيف توقي ظهر ما أنت راكبه. «أي (تتوقى) وهو من قول الشاعر المتلمس:
فإن لا تجللها يعالوك فوقها وكيف توقى ظهر ما أنت راكبه»[(١)]

– يأتيك بالأخبار من لم تزود
«أول من قال ذلك طرفة بن العبد في قوله:
ستُبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتِيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوّد»[(٢)]

– كذي العر يكوي وهو راتع.
ورد أصل هذا المثل في شعر النابغة:
أحملتني ذئبَ امرىءٍ وتركتهُ كذي العُرِّ يكوى غيرَهُ وهو راتعُ[(٣)]

(١) المستقصى: ٢٣٦/٢، و البيت في ديوان المتلمس الضبعي، عني بتحقيقه وشرحه/ حسن كامل الصيرفي، ص١٩٧، ط معهد المخطوطات العربية، ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م.
(٢) المستقصى، ٢٠٤/٢. والبيت في ديوان طرفة، اعتنى به وشرحه/ عبد الرحمن المصطاوي، ص٣٨، ط دار المعرفة، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
(٣) السابق، ٢١٧/٢، والبيت في ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به وشرحه/ حمدو طماس، ص٧٨، ط/ دار المعرفة، بيروت، لبنان، الثانية، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

- من لا يذد عن حوضه يهدم

«ورد أصل هذا المثل في قول زهير:

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمْ النَّاسَ يُظْلَمِ»(١)

- عند جهينة الخبر اليقين

«يتضح أنه ورد في الأصل ضمن شعر قاله الأخنس بن كعب الجهني، وكان قتل الحصين بن عمرو الكلبي، وجعلت امرأة القتيل تبكيه وتسأل عنه فقال الأخنس:

تساءل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين»(٢)

- عودت كندة عادة فاصبر لها.

«هذا المثل مأخوذ من قول الأعشى:

عودتَ كندةَ عادةً، فاصبر لها، اغْفِرْ لجَاهِلِهَا، وَرَوّ سِجَالَهَا»(٣)

- لا جديد لمن لم يلبس الخلقا

«أول من قال ذلك بقيلة الأشجعي في قوله:

إلبس جديدك إنى لابس خلقى ولا جديد لمن لا يلبس الخلقا»(٤)

- لاَ قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الْأَسَدِ.

«من قول النابغة:

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى ولا قرار على زأر من الأسد»(٥)

- خَلاَلَكِ الْجَوُّ فَبِيْضِى وَاصْفِرِى.

«مثل يضرب في الحاجة يتمكن منها صاحبها وهو مأخوذ من قول طرفة:

يا لك من قنبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضى واصفرى»(٦)

---

(١) السابق، ٣٥٩/٢، والبيت في شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، قدم له وعلق حواشيه/ سيف الدين الكاتب، عصام الدين الكاتب، ص١١، ط منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

(٢) السابق، ١٦٩/٢.

(٣) السابق، ١٧٢/٢، والبيت في ديوان الأعشى حققه وقدم له/ فوزي عطوي، ص١٤١، ط دار صعب، بيروت، ١٩٨٠م.

(٤) المستقصى، ٤٠٤/٢

(٥) السابق، ٣٨١/٢، والبيت في ديوان النابغة، ص٣٧.

(٦) السابق، ٧٥/٢، والبيت في ديوان طرفة، ص٤٣.

- إنَّ الْجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقَهِ

«أول من قاله عمرو بن مامه في شعر له، وكانت قبيلة مراد قتلته فقال عند ذلك:

لقد حسوت الموت قبل ذوقه إنَّ الْجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ»[1]

- هَوِّنْ عَلَيْكَ وَلاَ تُوْلَعْ بِإِشْفَاقِ.

«من قول يزيد بن حذاق:

هَوِّنْ عَلَيْكَ وَلاَ تُوْلَعْ بِإِشْفاقِ فإنما مالنا للوارث الباقى» [2]

- إذا ما القارظ العنزي آبا

«من قول بشر بن أبي خازم:

فرجي الخير وانتظري إيابي إذا ما القارظ العنزي آبا»[3]

- شر اللبن الوالج

«من قول الحارث بن حلزة:

واصبب لأضيافك ألبانها فإن شر اللبن الوالج»[4]

- حَسْبُكَ مِنْ غِنىً شِبَعٌ وريٌّ

«هو لامرئ القيس يذكر معزى كانت له فيقول:

إذا ما لم تكن إبل فمعزي كأن قرون جلتها العضى
فتملأ بيتنا أقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع وري»[5]

---

(١) السابق، ٩٦/١.
(٢) السابق، ٤٠٢/٢.
(٣) المستقصى، ١٢٨/١.
(٤) السابق، ١٢٩/٢. والبيت في ديوان شعر/ الحارث بن حلزة اليشكري، ص٢٧، نشر/ فريتس كرانكو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٢م.
(٥) السابق، ٦٣/٢. والبيتان في ديوان امرئ القيس، ص٨٧.

- رب أكلة تمنع أكلات.

«أول من قال ذلك عامر بن الظرب العدواني حيث يقول:

ورب أكلـــــة منعـــــت أخاهـــــا بلـــذة ســـاعة أكـــلات دهـــر»(١)

- جُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ الْيَدِ

«هو من شعر امرئ القيس حيث قال:

ولـــو عـــن نـــشا غـــيره جـــاءني وجـــرح اللـــسان كجـــرح اليـــد»(٢)

- ما أشبه الليلة بالبارحة

«المثل لطرفة بن العبد قال:

كلـــــهم أروغ مـــــن ثعلـــــب مـــا أشـــبه الليلـــة بالبارحـــة»(٣)

- ما وراءك يا عصام

«قيل إن المتكلم به النابغة من قصيدة له يقول:

فـــــإني لا ألومـــــك في دخـــــول ولكـــن مـــا وراءك يـــا عـــصام»(٤)

- المرء يعجز لا المحالة

«مأخوذ من قول أبي دؤاد الإيادي يعاتب امرأته:

وعـــــصيت أمـــــر ذوي النـــــهى وأطعـــــت رأي ذوي الجهالـــــة

---

(١) السابق، ٢/٩٤.

(٢) السابق، ٢/٥٠. والبيت في ديوان امرئ القيس، ص١٦٥.

(٣) مجمع الأمثال، الميداني تح/ محمد محيي الدين عبد الحميد: ٣/٢٦٣، ط دار المعرفة، بيروت. والبيت في ديوان طرفة، ص١٩.

(٤) السابق: ٣/٢٤. والبيت في ديوان النابغة، ص١٠٨.

فاحتلـــــت يـــــومي صـــــرمتني والمـــرء يعجـــز لا المحالـــة» (١)

- يعود على المرء ما يأتمر

«من قول امرئ القيس:

أحاربن عمرو كأني خمر ويعدو على المرء ما يأتمر»(٢)

- رب ساع لقاعد

«ذكر الزمخشري أن النابغة أول من قاله حيث يقول:

أتـــى أهلـــه منـــه حبـــاء ونعمـــة ورب امـــرئ يـــسعى لآخـــر قاعـــد»(٣)

- رضيت من الغنيمة بالإياب

«أول من قاله امرؤ القيس بن حجر في بيت له وهو قوله:

وقـــد طوفـــت بالآفـــاق حـــتى رضـــيت مـــن الغنيمـــة بالإيـــاب»(٤)

- بعض الشر أهون من بعض

«من قول طرفة حين أمر النعمان بقتله:

أبـــا منـــذر أفنيـــت فاســـتبق بعـــضنا حنانيـــك بعـــض الـــشر أهـــون مـــن بعـــض»[٥]

---

(١) الحيوان، الجاحظ، تح/ عبد السلام هارون: ٤٨٢/٦، تقديم أ.د/ أحمد فؤاد باشا، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، د.ت.

(٢) مجمع الأمثال ٥٤٠/٣. والبيت في ديوان امرئ القيس، ص١٠٥.

(٣) المستقصى ٩٥/٢

(٤) المجمع الأمثال ٣٨/٢

(٥) السابق: ١٦٤/١

- كذب العير وإن كان برح.

«من بيت أبي دؤاد:

قلـــت لمـــا فـــصلا مـــن قنـــة كـــذب العـــير وإن كـــان بـــرج»(١)

- إنما يجزي الفتى ليس الجمل

«المثل للبيد قاله في قصيدة له:

وإذا جوزيـــت قرضـــا فـــاجز بـــه إنمـــا يجـــزي الفـــتى لـــيس

- لا يجمع السيفان في غمد

«من قول أبي ذؤيب الهذلي:

يزيـــد بـــن كيمـــا تعمـــديني وخالـــدا وهـــل يجمـــع الـــسيفان في غمـــد»(٣)

(١) السابق ٣/٦٠

(٢) جمهرة الأمثال ١/٥١

(٣) فصل المقال ٣٩٤.

- توظيف الأمثال في الشعر الجاهلي:

كما أن من الأمثال ما كان أصله شعراً ثم أخذ منه كما سبق بيانه، منها - وهو الأكثر - ما كان النثر أسبق إليه من الشعر؛ بمعنى أنه وجد في الأصل نثراً، ثم التفت إليه الشعراء وضمنوه أشعارهم يقيناً منهم بقيمة المثل من ناحية، ولأن المثل المسوق في قالب شعري أكثر تداولاً وأبقى أثراً.

وقد عرف الشاعر الجاهلي للأمثال العربية أهميتها في تشكيل الذوق الأدبي، وأدرك ما لها من قيم تاريخية واجتماعية ولغوية وثقافية وفنية إلى آخر تلك القيم التي حاول الشاعر الإفادة منها عن طريق تضمين شعره بعضاً من الأمثال كي يجمع في شعره بين هذين الفنين اللذين لهما صدى في نفوس المتذوقين، ومن ثم يكتب لشعره السيرورة والذيوع على نحو ما أشار إليه اليوسي إبان كلامه عن المثل.

«وإن كان سائراً لكنه إذا نظم كان أسير له وأسهل على اللسان وأحسن، ثم إنه قد يقع بيتاً كاملاً، وقد يقع نصف بيت أو ربعه أو نحو ذلك من الأجزاء» (١)

والمتصفح في الشعر الجاهلي يلحظ أنه اشتمل على كثير من الأمثال، بل ربما يحدث خلط في نسبة المثل إلى قائل الشعر - أي أنه صاحبه - أو إلى غيره، وأحياناً لا يعرف أيهما أسبق المثل أم الشعر المحتوى عليه؟

«والتداخل بين الشعر والأمثال لا يقف عند هذا الحد، بل يتجاوز ذلك إلى تضمين الشعراء للأمثال في مرحلة تالية لشيوع المثل واشتهار دلالته بين الناس، فيكون تضمين الشاعر لعبارة المثل رمزاً للمعنى الذي يستفاد من فحواه، وهذا كثير جداً في التراث العربي شعراً ونثراً، وليس من المستطاع حصر الأشعار التي ضمنها قائلوها عبارات أو معان مشهورة، فالتقارب إذن بين الأمثال والشعر قائم، واستفادة كل منهما من الجنس الآخر لا يقف عند حد» (٢).

وإذا كان من خصائص الأمثال الثبات، وعدم تغير الصيغ فإن «الشاعر في اقتباسه للمثل قد لا يلتزم الصيغة المأثورة التي روى بها المثل، ولا نستبعد تصرف الرواة في صيغ هذه الأمثال، وحتى إذا افترضنا التزام الرواة بالصيغة المأثورة للأمثال المروية، فإن الشاعر عندما ينظم شعراً يخضع للوزن والقافية التي قد لا تتفق مع الصيغة المأثورة المروية للمثل، ومن ثم يأتي الشاعر حينئذٍ بمعنى المثل

---

(١) زهر الأكم: ١/٢١.

(٢) أمثالنا الموروثة، د/ أحمد عبيد، ص٣١.

ومضمونه دون النظر إلى صيغته الواردة» [١].

سياقات توظيف الأمثال في الشعر الجاهلي:

١- السياق التاريخي:

قد يستعين الشاعر بالمثل ذي البعد التاريخي، رغبة منه فى أن يحيط الحقائق التاريخية بسياج أدبي يحول بينها وبين الاندثار، والأخبار التاريخية المؤثرة هي التي تتضمنها الأمثال والأشعار، لما لهما من مردود في العقول والقلوب والأسماع، فالمثل والشعر كلاهما يعملان على صيانة الأخبار من الضياع، فضلاً عن إكساب الخبر المروي قيمة أدبية تتحقق له من وروده في المثل من ناحية، ثم توظيف ذلك المثل في الشعر من ناحية أخرى.

ومن أمثلة ذلك:

- زمن الفطحل.

«قال رؤبة:

فقلت لو عُمّرْتُ عُمْرَ الحِسْلِ ... أو عُمْرَ نُوحٍ زمَنَ الفِطَحْلِ

وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كَطِينِ الوَحْلِ ... كُنْتُ رَهِينَ هَرَمٍ أوْ قَتْلِ

وسئل عن زمن الفِطحْل فقال: أيام كانت الحجارة رطبة، وإذا كل شيء ينطق» [٢] فاستدعاء نوح عليه السلام مقروناً بزمن الفطحل -إشارة إلى أزمان غابرة موغلة في القدم، وهذا المثل يضرب لمن عمر طويلاً، وأنه لن يبلغ - مهما طال به الزمان - معشار زمنهم.

والحِسْل يضرب به المثل فيقال: «أعمر من ضب»، «عن الأصمعي، يبلغ الحسل مائة سنة ثم تسقط سنه، فحينئذٍ يسمى ضباً، يقول رؤبة:

---

(١) دراسات أدبية في الخطب والأمثال الجاهلية، د/ سليمان محمد سليمان، ص٩٨، ط دار الوفاء، الإسكندرية.

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، تح/ إبراهيم صالح: ٧٥١/٢، ط دار البشائر، الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م. والبيتان في ديوان رؤبة (ضمن مجموع أشعار العرب)، اعتنى بتصحيحه وترتيبه/ وليم بن بن الورد البروسي، ص١٢٨، ط/ دار ابن قتيبة، الكويت.

فقلت لو عُمّرْتُ عُمْرَ الحِسْلِ.... البيتان » [١]

– وتضرب الأمثال بالمعمرين كلقمان ولبد، يقول الثعالبي:

"نسر لقمان: يضرب مثلاً في طول العمر، ويقال: أتى أَبَدُ على لُبَد، أخنى عليها الذي أخنى على لُبَد، قال لبيد:

ولقــدْ جَــرَى لُبَــد فــأدْرَكَ رَكّــضَه رَيْــبُ المنــون فكــان غــيرَ مُثقَّــلِ

لمــا رأى لُبَــدُ النــسورَ تطــايَرَتْ رَفْــعَ القــوادمَ كالكــسير الأعْــزَلِ

مِــنْ تحْتِــهِ لُقْمَــانُ يَرْجُــو نهْــضَهُ وقــدْ رَأى لُقْمَــان أن لا يــأتلِي(٢)

فلبيد يضمن شعره إشارات تاريخية من خلال توظيف المثل، يقول السجستاني: «لقمان عاد صاحب قصة النسور، إذ يزعمون أنه عاش عمر سبعة نسور، كلما هلك نسر خلف من بعده نسر، وكان آخرها (لبدا) الذي ذكره الشعراء كثيراً في أشعارهم» [٣]

– أشأم من أحمر عاد

«وهو الذي عقر ناقة صالح فهلكت بفعله ثمود، قال زهير:

فتنــتج لكــم غلمــان أشــأم كلــهم كــأحمر عــاد ثم ترضــع فــتفطم(٤)

ويمثل المكان بعداً تاريخياً أشارت إليه بعض الأمثال ووظفه الشعراء مثل: اختصاص أرض خيبر بإنتاج التمر، وهو مرتبط ببيئة الحجاز، والمثل:

– كمستبضع التمر إلى خيبر.

ومعلوم أن «الأمثال تتأثر بالبيئة التي انبثقت منها، ففي بيئة الحجاز الزراعية كخيبر والمنية حيث ينتشر النخيل نجد أن الحجازيين قد اتخذوا من التمر مادة للأمثال يعالجون بها أطرافاً من شئونهم المعيشية، وحياتهم الاجتماعية، فقالوا: كمستبضع التمر إلى خيبر، ويقال للدلالة على خطأ هذا الفعل، فخيبر مصدر التمر، والذي يجلب إليها التمر مخطئ أعظم الخطأ، مقضي على تجارته بالبوار

(١) مجمع الأمثال ٢/٥٠.

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٢/٦٩٤. والأبيات في ديوان لبيد ص٨٣.

(٣) المعمرون والوصايا، السجستاني، ص٣.

(٤) المستقصى، ١/١٧٦. والبيت في شرح شعر زهير، ص١٠٥.

والكساد، وهذا أمر من بدهيات التجارة، والشيء يجب أن يوضع في موضعه، ويوجه لمن هو في حاجة إليه قال النابغة:

وإنَّ امـــرأ أهْـــدَى إليْـــكَ قـــصَيْدةً كمُسْتَبْـــضِعٍ تمْـــرَاً إلـــى أرضِ خيْبَـــرَا(١)

ففي إطار السياق التاريخي يستدعي النابغة الموقف المشابه، فالممدوح لا ينبغي أن يهدي إليه الشعر لأنه به خبير، وخبرته به تضع المهدي في موقف الحرج، كما أنه يرمي إلى أن من أراد أن يهدي الممدوح قصيدة عليه أن يجودها وينقحها، وربما يقصد النابغة إلى عدم احتياج الممدوح إلى الإطراء لأنه رفيع القدر فلن تزيده المدائح المهداة إليه شيئاً.

ومن المأثورات التاريخية اشتهار بيئة خيبر بالوباء والحمى فيقال:

- حمَّى خيبر

«يضرب بها المثل لأن خيبر مخصوصة بالحمى والوباء قال أوس بن حجرا:

كـــأن بـــه إذ جئتـــه خيبريـــة يعـــود عليـــه وردهـــا وملالهـــا

وقال آخر من الرجز: كأن حمَّى خيبر تملُّه

وقال أعرابي كثرت عياله وقل ماله: ما أراني إلا سأنتجع خيبر عسى أن يخفف عني ثقل هؤلاء ؛ فارتحل إلى خيبر، فلما شارفها أنشأ يقول:

قلـــت لحمَّـــى خيـــبر اســـتعدي وبـــــــاكري بـــــــصالب وورد

هـــاك عيـــالي فاجهـــدي وجـــدي أعانـــك الله علـــى ذا الجنـــد»(٢)

- ومن أمثال الأمكنة:

- حصن تيماء

(١) مطارحات وقضايا في الأدب الجاهلي، د/ فتحى أبو عيسى، ص٣٣٢، والمثل في مجمع الأمثال: ٣٩/٣. والبيت في ديوان النابغة ص٢٢.

(٢) مجمع الأمثال، ٧٩١/٢. والبيتان في ديوان أوس بن حجر، تح وشرح/ د. محمد يوسف نجم، ص١٠٠، ط/ دار صادر، بيروت، الثالثة، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

«بلدة بين الشام والحجاز ولها حصن يتمثل به في الحصانة، يقال: إن سليمان – عليه السلام – بناه بالحجارة والكلس، فسمته العرب (الأبلق) لما يشوبه من البياض والسواد، وكان ملكه عادياً اليهودي، ثم ابنه السموءل، وفيه يقول الأعشى:

أرى عاديـــاً لم يمنـــع المـــوت مالـــه وفـــرد بتيمـــاء اليهـــودي أبلـــق

بنـــاه ســـليمان بـــن داوود حقبـــة لـــه أزجٌ صـــمٌ وطـــيء موثَّـــق

يـــوازي كبيـــداء الـــسماء ودونـــه مـــلاط ودارات وكلـــس وخنـــدق»(١)

فتوظيف الأعشى للمثل في السياق التاريخي جاء من خلال الوصف الدقيق لذلك الحصن، بدءاً من وضع أساسه وصلابة بنائه، وعلوه وارتفاعه، ومن توارد الملوك عليه، كل هذا حمله تصوير رائق في قوله (يوازي كبيداء السماء) وما يوحى به هذا التصوير من تفرد الحصن بالشموخ والمنعة، ومقاومته للضعف والانهيار.

وقد ذكر الأعشى هذا الحصن في موطن آخر من شعره إذ يقول:

«كُـــنْ كالـــسَّمَوْأَلِ إذْ طَـــافَ الهُمَـــامُ بِـــهِ فِـــي جَحْفَـــلٍ كَـــسَوَادِ اللَّيْـــلِ جَـــرَّارِ

بـــالأَبلقِ الفـــرْدِ مِـــنْ تَيْمَـــاءَ مَنْزِلُـــهُ حِـــصْنٌ حَـــصِينٌ وَجَـــارٌ غَيْـــرُ غَـــدَّارِ

إذْ سَـــامَهُ خُطَّتَـــى خَـــسْفٍ فَقَـــالَ لَـــهُ مَهْمَـــا تَقُلّـــهُ فَـــإنِّي سَـــامِعٌ حَـــارِ»(٢)

– ومن الأمثال التاريخية:

– أجور من سدوم

يقول الزمخشري: «قال عمرو بن الدراك العبدي:

لأعظـــم فجـــرة مـــن أبـــي رغـــال وأجـــور فـــي الحكومـــة مـــن ســـدوم

سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط بها قاض جائر، وأبو رغال: رجل وجهه صالح – عليه السلام – على صدقات، فأساء السيرة فقتلته ثقيف، وقيل: هو دليل أبرهة وهو

(١) ثمار القلوب، ٧٥١/٢. والأبيات في ديوان الأعشى، ص١٢٦.

(٢) ديوان الأعشى، ص١١٧، ومجمع الأمثال، ٤٤٦/٣، والمستقصى، ٤٣٦/١.

الذي يرجم قبره بمكة» [١].

- أبطش من دوسر

«يقول الشاعر:

ضـــربت دوســـر فـــيهم ضـــربة أثبتـــت أوتـــاد ملـــك فاســـتقر

ودوسر إحدى كتائب النعمان بن المنذر، وسميت دوسر اشتقاقاً من الدسر وهو الطعن بالثقل وذلك لبطشها الشديد لمن يقف أمامها، والعربي بطبعه يرفض الظلم ولا يرتضيه لنفسه» [٢].

- ومن الأماكن التاريخية:

- أم أدراص

«يضرب بها المثل في الخداع فيقال: أعذر من أم أدراص: هي أرض مضللة تعثر من يطؤها ظناً منه أنها أرض مستوية، قال عامر بن مالك الجعفري لقيس بن زهير:

ومـــا أم أدراص بـــأرض مـــضللة بأغـــدر مـــن قـــيس إذا الليـــل أظلمـــا»(٣)

ومن الشخصيات التاريخية التي ضرب بها المثل: قضيب؛ فيقال:

- أصبر من قضيب

«هو رجل في الدهر الأول من بني ضبة، قال الشاعر:

أقيمـــي عنـــد غنمـــي لا تراعـــي مـــن القتلـــى الـــتى بلـــوى الكثيـــب

لأنـــتم يـــوم جـــاء القـــوم ســـيرا علـــى المخـــراة أصـــبر مـــن قـــضيب»(٤)

فتوظيف الشعراء لمعظم تلك الأمثال التاريخية ساعد على حفظ تلك الشخصيات وتلك الأمكنة من الاندثار، وإن كان استدعاؤها مجرد استئناس تاريخي، لا تحمل كثيراً من القيم الفنية إذا قيست بأنماط التوظيف الأخرى.

(١) المستقصى، ٥٦/١.
(٢) السابق، ٢٣/١، ٢٤.
(٣) المستقصى ٢٥٨/١.
(٤) السابق، ٣٠٢/١.

٢- السياق القصصي:

ترتبط الأمثال بالحكايات ارتباطاً وثيقاً، فلكل مثل قصة وحكاية، «ومما تمتاز به أمثالنا العربية جملة أن الكتب التي تعنى بجمع الأمثال حين تذكر المثل تذكر معه قصته الواقعية، أو تتخيل له قصة ملائمة، وأما كتب الأمثال في اللغات الأخرى فالغالب أنها تورد الأمثال مجردة» (١).

فإذا تأكد التلازم بين القصة والمثل ترتب على هذا تساؤل مفاده: أيهما أسبق زمناً؟ يفصل القول في تلك المسألة د/ عبد المجيد عابدين إذ يقول:

«أحياناً تكون القصة هي الأصل، والمثل هو الفرع، ولكن الوضع ليس كذلك دائماً في نشأة الأمثال التي تتضمن في قصص، فلا شك أن طائفة كبيرة من هذه الأمثال كانت هي الأصل، ثم لفقت لها القصص بعد ذلك لشرحها وتفسيرها. كثير من الأمثال الموجزة التي يتمثل بها الناس في مناسباتهم المختلفة كانت تنتهي إلى الأجيال المتأخرة مقطوعة عن أصولها، وهذا أمر لا نزال نلاحظه في أمثالنا الدارجة اليوم، ينطق بها لساننا في المناسبات، ونفهم مغزاها بالجملة، فإذا وقفنا عند تفصيلاتها فقد نعجز عن فهم بعض ألفاظها وتراكيبها وأصولها الأولى» (٢).

على أية حال فإن القصص مصدر خصب من مصادر الأمثال، وتأتي القيمة القصصية للمثل في أن عبارته الموجزة تحمل في طياتها وقائع وأحداث القصة، فيتم استدعاء المشاهد والأحداث كلما ذكر المثل «ولعل العرب قصدوا بالأمثال أن تكون وسيلة من وسائل النشر الأدبي إذ حملوا العبارة القصيرة قصة ذات دلالة خاصة، فأصبح من السهل الميسور على كل عربي أن يتناول القصة العربية من غير حاجة إلى كناية ولا إلى مجهود شاق في حفظها ونقلها، فيكفي أن ينثر تلك العبارة في جمع ليستعيدوا الحدث الأصلي الذي قيلت فيه، وبذلك يكون للمثل رسالتان يؤديهما:

أولاً: تشبيه حدث بآخر والإيحاء بأن ما جرى هناك جدير بأن يحدث هنا،

ثانياً: إذاعة القصة العربية ونشرها بأيسر السبل وأقربها إلى كل ذوق عربي» (٣)

---

(١) مقال «الموروثات الشعبية كم فيها ثابت وكم فيها من متغير» مجلة العربي، عدد ٣١٩، ص١٠، يونيه ١٩٨٥.

(٢) الأمثال العربية في النثر القديم، ص٣٧.

(٣) النثر الفني في العصر الجاهلي، د/ على أحمد عبد الهادي الخطيب، ص٥١، ط / مطبعة الأمانة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩١م.

ويتمثل التوظيف القصصي للأمثال في أن يحول الشاعر قصة المثل النثرية التي نتج عنها المثل أو جاء في أعقابها إلى قصة في سياق الشعر تتحقق فيها عناصر القصة أو بعضها كالزمان والمكان والحدث والحوار والعقدة والحل... إلخ.

ومما ينبغي التنويه إليه أن الشعر الذي قيل إثر الحادثة، أو هو جزء أصيل من القصة ليس من البحث بسبيل، وإنما المقصود هو ذلك الشعر الذي استوعب المثل القصصي، ثم وظفه القائل في شعره مستعيناً بأدواته الفنية.

ومن أمثال القصص التي وظفها الشعراء في سياق شعري قصصي:

- كيف أعاودك وهذا أثر فأسك،

وهذا المثل جزء من حكاية معروفة، وقد استحوذ على اهتمام كثير من جامعي الأمثال باعتباره محل الاستشهاد على حد قول د/ عبد المجيد قطامش:

«أما مدونو الأمثال فإنهم كانوا لا يعدون الحكايات برمتها أمثالاً، وإنما دأبوا على أن يأخذوا منها الكلمات السائرة وحدها، فأخذوا من حكاية الحية والفأس قول الحية: كيف أعاودك وهذا أثر فأسك» (١).

وقد وردت الإشارة إلى شيء من تلك الأمثال التي جاءت في إطار شعري قصصي، ومثال ذلك ما ذكره المفضل الضبي من حكاية قصة المثل السالف ذكره ثم إتباع الحكاية بذكر المثل ثم إردافه بشعر النابغة الذبياني بقوله:

«قال نابغة ذبيان:

تذكر أنى يجعل الله جنةً ... فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فلما توفى العقل إلا أقله ... وجارت به نفس عن الخير جائره
فلما رأى أن ثمر الله ماله ... وأثل موجوداً وسد مفاقره
أكب على فأس يحد غرابها ... مذكرةٍ بين المعادل باتره
فقام لها من فوق حجر مشيد ... ليقتلها أو يخطىء الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فاسه ... وللبر عين لا تغمض ناظره
تندم لما فاته الدّحل عنها ... وكانت له إذ خاس بالعهد قاهرة
فقال تعالي نجعل الله بيننا ... على مالنا أو تنجزي لي آخره» (٢)
فقالت يمين الله أفعل إنني ... رأيتك مسحوراً يمينك فاجره

(١) الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، د/ عبد المجيد قطامش، ص ٦٨.
(٢) أمثال العرب، ص٨٥

أبى لي قـــــبر لا يـــــزال مقـــــابلي وضـــربة فـــأس فـــوق رأســـي فـــاقره[1]

فالمثل المضمن في الشعر يضرب في عدم إعطاء الأمان لمن صدر منه الغدر سلفاً

وحديث الحية مع الرجل من قبيل الرمز؛ لأن القصص التي تحكي على لسان الحيوان تتردد في الأدب العربي؛ ومثل هذا اللون القصصي يحقق قيمة أشار إليها د/ أحمد عبيد إذ يقول:

«ويتضح من الأمثال التي تحكى على ألسنة الحيوان أن لها مغزى فكرياً وأخلاقياً فهي ليست كلاماً خالياً من المضمون، ولا عبثاً فارغاً، بل هي تشبه إلى حد كبير قصص كليلة ودمنة في مغزاها الأخلاقي، وهدفها التربوي الإصلاحي، ويبدو أن بعضها ارتبط بالأقاصيص التي تحكي للأطفال، ويصنعها لهم الكبار صنعاً، وينسجون بعضها من وحي الخيال، وتبقى أصداؤها في أذهان الناس جيلاً بعد جيل» [2].

جدير بالذكر أن البحث غير معني بتتبع عناصر القصة في القصص العربي الجاهلي، فذاك أمر بات معروفاً لدى الدارسين، وإنما يعني بكيفية استعانة الشاعر الجاهلي بالمثل القصصي، وقدرته الفنية على توظيف المثل القصصي في شعره وتضمينه إياه، فالنابغة الذبياني استطاع أن ينقل القصة النثرية المختومة بالمثل (كيف أعاودك وهذا أثر فأسك) إلى سياق شعري من خلال استدعاء حالة الحية مع من غدر بها لموقف مشابه يتعرض له الشاعر من حساده، وعن طريق إجمال أغنى عن التفصيل تمثل في استيفاء معظم الدية، ومن ثم اختصر الحوار الذي دار بينهما على التقاضي، كما يظهر سرعة تتابع الأحداث الذي دل عليه كثرة التعليق بين الأبيات عن طريق الشرط والجزاء مثل (فلما توفي العقل.. أكب على فأس) وقوله (فلما وقاها.. تندم لما فاته). ولما كان الأمان موجوداً في المرة الأولى ناسب ذلك اختصار الأحداث، ولما حدث الغدر ويريد الغادر أن يعطي الأمان لمن نكث معه العهد ناسب ذلك أن يبحث الغادر عما من شأنه إعادة إحلال الثقة للمغدور به فالتجأ إلى وسيلة أخرى وهو ما نص عليه الشاعر على لسان الغادر من دعوته خصمه إلى التعاهد بالله، ومن قسم المغدور به على عدم ثقته بالغادر

(١)هذان البيتان مع ما قبلهما في ديوان النابغة ص٦٢-٦٣.

(٢) أمثالنا الموروثة، ص١٢٨.

مرة أخرى.

ولعل اتكاء الشاعر على استعمال عبارة (عهد الله) على لسان الغادر – وهو ما لم يرد له ذكر في الحكاية – يدل على محاولة الخادع إقناع المخدوع بإعطاء الأمان له، كما أن فيه إشارة إلى عدم الانخداع بمن يكثر الحلف متخذاً من ذلك سبيلاً – إلى طمأنة محاوره – وما أكثر من يفعل ذلك – وفي استعمال الشاعر القسم دعوة ضمنية إلى عدم الاعتداد بكثرة الحلف لا سيما وأن الحالف قد سبق حاله مقاله.

ويلمح في تلك القصة أثر الوعظ والإرشاد وقد علق عليها د/ عبد المجيد عابدين قائلاً: «وهذه هي الخرافة الوحيدة من نوعها من جملة ما أورده الضبي، والمغزي الوعظي ظاهر فيها، فهي من قصص الحيوان التي شاعت في الأوساط التعليمية» (١).

– جزاء سنمَّار

ضربت العرب هذا المثل لمن يُجزى بالإحسان الإساءة فهذا الرجل الذي بنى بناء وأحكمه على غير مثال كان جزاؤه أن ألقاه ملك القصر من أعلاه فسقط ميتاً. وقد تردد ذكر سنمار عند الشعراء كقول الشاعر:

جزتنا بنو سعد بحسن فعالنا جزاء سنمار وما كان ذا ذنب(٢)

وقول الآخر:

جزتنا بنو لحيان أمس بفعلنا جزاء سنمار بما كان يفعل(٣)

أما توظيف هذا المثل في الشعر وجعله في سياق قصصي وقالب شعري، فقد جاء في خمسة أبيات للكلبي، أوردها الجاحظ وهي:

جزاني جزاه اللهُ شرَّ جزائه
جزاءَ سِنمَّارٍ وما كان ذا ذنبِ
سِوَى رَصِّه البنيانَ سَبعين حِجَّةً
يُعَلَّى عليه بالقرَامِيدِ والسَّكَبِ

(١) الأمثال في النثر العربي القديم، ص٣٢.
(٢) مجمع الأمثال: ٢٨٢/١.
(٣) كتاب الأمثال، زيد بن مفاجه الكاتب (٣٢٠هـ) ص١٧٧، ط/ ١٣٥١، الأولى، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن.

فلمـــــا رأى البُنْيـــــانَ تمَّ سُـــــحُوقه
وآضَ كمِثْـــلِ الطَّـــوْدِ ذِي البـــاذِخِ الـــصَّعْبِ
وظـــنَّ سِـــنِمّارٌ بـــه كُـــلَّ حبـــوة
وفـــازَ لَدَيْـــهِ بـــالمودَّةِ والقُـــرب
قـــال اقـــذِفُوا بـــالعِلْجِ مِـــنْ رأسِ شـــاهقٍ
فـــذاكَ لعَمْـــرَ اللّـــهِ مِـــنْ أعظَـــمِ الخَطْـــب(١)

فالشاعر يصوغ المثل في سياق قصصي تأتي فيه الأحداث مفصلة، حيث ذكر مدة البناء التي استغرقت سبعين حجة مع إحكام البناء وإعلائه بالحجارة، وتزيينه بالنحاس، ولعل الإمعان في ذكر تفاصيل البناء من زمنه، واختيار أحجاره، والعناية به، يوحي بمدى الحسرة التي انتابت الصانع الذي أحسن العمل، من جرَّاء مجازاته بالإساءة إليه.

ويتنامى الإحساس بالعلو والكبرياء كلما ارتفع البنيان، وبدت عليه علامات الإحكام، وأمارات الإتقان، وقد شبهه بالطود الشامخ الذي يتأبى على أن يتسنم أحد أعلاه، ويصعب على الصاعد مرقاه.

وتتمثل العقدة في أن الباني ظل يعلو ببنائه حتى لا يدانيه أحد، وهو بذلك يظن أنه الأثير لدى الملك والمقرب من ساحته والذي سيحظى بنواله ويكون من أخص خواصه، وتأتي المفاجأة في الأمر بإلقاء ذلك الباني بل قذفه من أعلى البناء، ولما كان الجزاء من جنس العمل وكان من المتوقع أن يتربع سنمار على قلب الملك، وأن ينزل منه منزلة علية، لكن المفاجأة في مجيء الأمر على عكس ما يتوقع بإلقاء الباني من أعلى قمة ما بناه.

والأمر بالقذف، وتسمية الباني بالعلج، والإلقاء من أعلى الجبل، فيه من الإذلال والمهانة ما فيه، فكل إبداع يقابله عقوبة مزرية وإيقاع بالمتقن الماهر وتنكيل به.

وقد جاء البيان القصصي من خلال السياق الشعري معبراً عن أبعاد المثل.

(١) الحيوان: ١/٢٣.

٣- السياق التعليلي:

قد يأتي توظيف الشاعر للمثل في سياق تعليلي، بمعنى أن يجعل المثل في منزلة العلة للمعلول، أو السبب للنتيجة، أو ترتيب الجزاء على الشرط فالإطار الذي يوظف الشاعر المثل فيه إنما يكون من خلال تلك الأنساق التركيبية فيكتمل المعنى وتزداد قناعة متلقى المثل، ومن أمثلته:

- بئس الردف لا بعد نعم.

فالمثل يضرب في كراهية النفي بعد الإيجاب، يقول الميداني:

«الردف: الرديف، أنشد ابن الأعرابي:

لا تتبعن نعم لا طائعاً أبداً ... فإن لا أفسدت من بعد ما نعم

إن قلت يوماً نعم بدءاً فتم بها ... فإن إمضاءها صنف من الكرم

وقال المثقب:

حَسَنٌ قَوْلُ نَعَمْ مِن بَعْدِ لا ... وقَبِيحٌ قَوْلُ لا بَعْدَ نَعَمْ

إنَّ لا بَعْدَ نَعَمْ فاحِشَةٌ ... فَبِلا فابْدَأْ إذا خِفْتَ النَّدَمْ

فَإذا قُلْتَ نَعَمْ فاصبرْ لَها ... بِنجَاحِ القَولِ، إنَّ الخُلْفَ ذمّ»[(١)]

فالشعر الذي أنشده ابن الأعرابي وظف قائله المثل عن طريق نقله من الخبر إلى الإنشاء المتمثل في النهي عن إتباع نعم لا، ولما كان هذا النهي مثيراً للتساؤل ذكر الشاعر علة النهي في الشطر الثاني، ثم جاء البيت الثاني ليتم المعنى في سياق الشرط والجزاء في الشطر الأول مصرحاً بالدعوة إلى الكلمة الأليق معللاً في الشطر الثاني ومؤكداً أثرها.

أما المثقب فجاء توظيف المثل من خلال ذكر الرأي أولاً ثم إتباعه بذكر مسبباته، ويأتي جمال التقابل بين شطري البيت الأول من خلال تحسين الإيجاب بعد المنع، وتقبيح المنع بعد الإيجاب، وذلك لما في الأولى من كرم النفس وأصالة الطبع، ولما في الثانية من جفاء الطبع وخسة النفس، كما يجعل قول (نعم) جمالاً لا يليق بعده ذكر (لا)، وقد عبر عن ذلك بالفحش، أما البدء بلا فمشروط بخوف الندم، ولما كان الغنم بالغرم فإن (نعم) تتطلب صبراً ومكابدة حتى يتحقق الموعود.

---

(١) مجمع الأمثال، ٩٨/١. وأبيات المثقب في شرح ديوان المثقب العبدي، جمعه وشرحه وحققه/ د. حسن حمد، ص٧٢، ط دار صادر بيروت، الأولى، ١٩٩٦م.

- من سره بنوه ساءته نفسه:

«وأصله أن ضرار بن عمرو الضبي ولد له ثلاثة عشر ولداً وكلهم بلغ فاحتمل ذات يوم، فلما رأى رجالاً معهم أهلوهم وأولادهم سره ما رأى من هيئتهم، ثم ذكر في نفسه أنهم لم يبلغوا ما بلغوا حتى رق وأسن وضعف وأنكر نفسه فقال:

(من سره بنوه ساءته نفسه) فأرسلها مثلاً فقال:

إذا الرجـــال ولـــدت أولادهـــا فانتفـــضت مـــن كـــبر أعـــضادها

وجعلـــت أوصـــابها تعتادهـــا فهـــي زروع قـــد دنـــا حـــصادها»[1]

هنا توظيف ضمني لمعنى المثل وليس للفظه، وهو كذلك بيان لما غمض في المثل، فكأن المثل على صورته يحتاج إلى دليل ومزيد إيضاح حتى يتسنى قبوله، فالهرم والوصب والعجز مقدمات النهاية، (أي الموت للوالد) ويقابل هذا النضارة والشباب ورغد العيش، وهي مقدمات الحياة عند الأبناء.

- ألق دلوك في الدلاء

«قال أبو عبيد: يضرب في اكتساب المال والحث عليه، قال الشاعر:

وَلَـــيْسَ الـــرزقُ عَـــن طَلَـــبٍ حَثِيْـــثٍ وَلَكِـــنْ أَلْـــقِ دَلْـــوَكَ فِـــي الـــدِّلاءِ

تجِـــيءُ بِمِلْئِهَـــا طَـــوْرَاً وطَـــوْرَاً تجِـــيء بِحَمْـــأةٍ وَقَلِيـــلِ مَـــاءِ»[2]

لما كان الرزق لا يأتي إلا بالسعي الحثيث عبر عنه المثل بإلقاء الدلو في الدلاء، كناية عن الأخذ بالأسباب، وإلقاء الدلو في الدلاء لا ينتظر منه الامتلاء في كل مرة، فربما يأتي بطين، وربما يأتي بماء قليل، وهذا التوقع المحتمل يعكس دعوة ضمنية إلى الصبر والمكابدة وإفراغ الوسع، فالشاعر في توظيفه للمثل قد فك شفرته وأوضح دلالته وأبان عن علته المتوارية كيلا يصاب الإنسان بالإحباط إذا ضاق رزقه أو قتر عليه، وذلك من خلال واقع محسوس ومشهد ملموس.

- لو كرهتني يدي ما صحبتني

«قال ذو الإصبع العدواني:

لا أبتغـــي وصـــل مـــن لا يبتغـــي صـــلتي ولا ألـــين لمـــن لا يبتغـــي لـــيني

(١) أمثال العرب، ص٧٧.

(٢) مجمع الأمثال، ١٩٠/٢.

والله لـــو كرهـــت كفـــي مـــصاحبتي لقلـــت للكـــف بـــيني إذ كـــرهتيني»[1]

فتوظيف معنى المثل جاء في سياق إثبات ترفع الشاعر عن وصل من لا يصله ونفي ذلك تماماً كما في البيت الأول، وإمعاناً منه في تأكيد هذا المبدأ استعان بالقسم في صدر البيت الثاني أولاً، وحمل الأبعد على الأقرب ثانياً، فإذا كان جزؤه وهو كفه كارهاً صحبته، غير مطاوع له، فإنه سيفارقها غير مأسوف عليها، فإذا كان هذا في الأقرب – والذي يحتمل معنى الصديق والقريب– فما بالنا بمن دونهما، وعبر عن المفارقة والبعد بالبين. وهذا التعليق من خلال الشرط والجزاء يعكس شموخ الشاعر وكمال استغنائه وعدم احتياجه. وقريب من هذا قول المثقب العبدي:

فلـــو أن الـــشمال تريـــد صـــرمي وجـــدك مـــا وصـــلت بهـــا يمـــيني
إذاً لقطعتـــــها وقلـــــت بـــــيني كـــذلك أجتـــوي مـــن يجتـــويني[2]

فالشاعر يزهد فيمن يزهد فيه، فإن بدرت بادرة صد وإعراض من أحد رد الإعراض بالصرم.

وعند الموازنة بين الشاعرين نلحظ أن المثقب أتى بالمعنى (اجتوى من يجتويني) عقب التمثيل، بينما ذكر ذو الأصبع المعنى أولاً ثم أعقبه بالتمثيل، والترفع عند ذي الإصبع يكون بعد استشعار الذل، أما عند المثقب فمتحقق قبل ظهور بوادره، إذ دل على أن مجرد إرادة الصد من الآخر الذي عبر عنه بالشمال – على ما فيها من ضعف وعجز – يقابله عزم مؤكد بالقسم على قطع صلة من كان هذا شأنه، إذ يترفع القوى – المعبر عنه باليمين – عن الاحتياج إلى الأضعف المعبر عنه بالشمال، وقد أكد المثقب هذا المعنى بطريق الشرط والجزاء، فعدم الوصل مترتب على إرادة القطع من الآخر، بل يتدرج في تأكيد هذا المعنى فليس فقط مجرد الامتناع عن الوصل بل قطع اليد ومفارقتها، ولعل الشاعر في امتناعه عن وصل اليمين غير راض عن هذا الفعل بل يمتد إلى أبعد من ذلك بقطع اليد. وقطع اليد عند المثقب أبلغ في الدلالة على عزة نفس صاحبها وترفعه من مجرد الكراهية أو المفارقة عند ذي الإصبع العدواني.

---

(١) مجمع الأمثال، ١/١٩٠.

(٢) السابق، ٣/١٢٠. والبيتان في شرح ديوان المثقب، ص٥٥.

- رجع بخفي حنين.

يقول ابن عبد ربه:

«وهذا المثل يقع في باب العي، قال الشاعر:

ومازِلْـــتُ اقطـــعُ عَـــرْضَ الـــبِلادِ مِـــــن المُـــــشْرِقين إلى المُغْـــــرِبَين
وَأدَّرعُ الخـــــوفَ تحـــــتَ الـــــدُجى وَأسْتَـــصْحِبُ الْجَـــدْى وَالفرْقـــدَيْن
وَأطـــوِى وَأنْـــشُرُ ثـــوبَ الهُمـــوم إلى أن رَجَعـــتُ بخُفـــي حُنَـــيْنٍ»[1]

فالشاعر يجعل المثل تعبيراً عما قدر للإنسان مهما أوتي من الأسباب، لكنه راض عن ذلك، لأنه لم يدخر وسعاً في السعي في جنبات الأرض والذي عبر عنه بالديمومة التي يدل عليها فعل (ما زال)، والتنقل المستمر من مكان إلى مكان شرقاً وغرباً، وما يستلزم ذلك السير في تلك المناطق المجهولة من خوف بلغ من صاحبه مبلغاً حتى إنه تسلح واتخذه درعاً في ظلمة الليل البهيم، وعبر الشاعر عن مواصلة السير باستصحاب النجوم وكر الليل ومجيء النهار.

كما أن الهموم أحاطت به إحاطة الثوب بلابسه، لكنه يتغلب عليها تارة، وتغلبه تارة أخرى، وقد عبر عن ذلك بالفعلين (أطوي وأنشر)، وكل تلك المقدمات تسلم إلى نتيجة الفوز وتحقيق المراد بيد أن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، فتأتي المفاجأة في حدوث عكس ما يتوقع المرء من الخيبة واليأس والإحباط، وهو موافق لعبارة المثل الذي جعله الشاعر نتيجة غير طبيعية لمقدمات حقيقية.

- إن تعش تر ما لم تره

«هذا مثل قولهم: عش رجبا تر عجبا. قال أبو عيينة المهلبي:

قـــل لمـــن أبـــصر حـــالاً منكـــرة ورأى مـــن دهـــره مـــا حـــيره
لـــيس بـــالمنكر مـــا أبـــصرته كـــل مـــن عـــاش يـــرى مـــا لم يـــره

ويروى (رأي ما لم يره) » [2]

فتوظيف المثل جاء في سياق التعليل الضمني، فالعيش الطويل، والعمر المديد، نتج عنهما اكتساب المعارف والخبرات، كما أن فيهما إجابة عن كثير من

(١) العقد الفريد ٣/١٢٥.
(٢) مجمع الأمثال: ١/٥٧.

التساؤلات، والإنسان إذا عمَّر طويلاً فسيأنس بما يشاهد، وسيقل دهشه وحيرته فيما يرى من أحداث الدهر وتقلبات الزمان، وجعل الشاعر المثل قاعدة عامة.

ويظهر التعليل لعدم إنكار ما تقع عليه العين بسبب طول العمر الذي تتحقق معه ألفة الأشياء.

- جلَّى محب نظره:

«يضرب في الاستدلال بالنظر على الضمير قال زهير:

فإن تك في صديق أو عدو تخبرك العيون عن القلوب

وقال ابن أبي حازم:

خذ من العيش ما كفى ومن الدهر ما صفا
عين ما لا يحب وصلك تبدي لك الجفا»[1]

فالمثل يدل على أن الصب تفضحه عيونه، بينما جعل الشاعر العين في نظراتها دالة على ما في قلب صاحبها ومخبرة عما ينطوي عليه ضميره، كما أنه لم يقصر ذلك على المحب الذي جاء به المثل وإنما جعل العين عاكسة لحب الصديق وبغض العدو.

أما ابن أبي حازم فقد خص ظهور الأثر على العين من الجفاء لدى الكارهين

ويمكن أن تتكامل تلك المعاني فبعضها يخبر عن ظهور أمارات الحب في عين المحب، وبعضها يدل على بدو سمات البغض في عين الكاره، وبعضها يجعل العين مرآة ناصعة لما يحمله القلب من حب أو بغض.

- إذا اتخذتم عند رجل يداً فانسوها.

«قال الشاعر:

أفسدت بالمن ما أصلحت من بُسُر ليس الكريم إذا أسدى بمنَّان»[2]

فتوظيف المثل جاء في سياق بيان علة نسيان المعروف وهي أن المن من صفة اللئام وتركه من أخلاق الكرام، وتعليل النسيان مدعاة إلى الإكثار من المعروف والتعبير عن المن بالإفساد، والتعبير عن المعروف بالإصلاح، خص على صنع

(١) العقد الفريد ١٣٣/٣. وبيت زهير في شرح ديوان زهير، ص٢٣.
(٢) مجمع الأمثال: ٢٩/١.

المعروف وتحذير من المن به. وكأن الشطر الثاني جواب عن سؤال تضمنه الشطر الأول وتعليل، وهو متوافق إلى حد كبير مع نسق المثل الذي يجعل نسيان المعروف لازماً عن إسدائه عن طريق الشرط والجزاء.

- إن الجبان حتفه من فوقه

«يضرب في عدم نفع الحذر من وقوع القدر، قال عمرو بن مامة:

لقد حسوت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه»[1]

وظف الشاعر المثل في عجز البيت إذ جعله علة لما جاء في صدر البيت، كما أن في العجز إجابة لسؤال ضمني مفاده: لم قدمت على الموت دون تهيب؟ فالشاعر لا يهاب الموت ودل على ذلك بلفظ (حسوت) وما تدل عليه كلمة الاحتساء من التشبع والنهم الذي يفوق مجرد التذوق، فإذا أضيف إلى ذلك التصريع والجناس بين (ذوقه وفوقه) وما في ذلك من إيقاع نغمي تحقق الإمتاع الفني.

- الشجاع موقى.

«ومنه قول الزبرقان بن بدر:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى مربض المستنفر الحامي»[2]

فالبيت مضمن معنى المثل، فقد جاء الشاعر بالمعنى تلميحاً، ويأتي التوظيف الضمني في سياق التعليل، فالشجاع يتقيه غيره وكأن هذا الخبر يحتاج إلى شاهد من الواقع فيسعفنا به الشاعر متخذاً من اتقاء الذئاب مرابض الغنم المحروسة بالكلاب وأما الجبان فمعرض للاختراق كما أن صاحب الغنم الذي لم يتخذ كلاب حراسة معرض لأن تفترس الذئاب غنمه.

- يحمل شنٌّ ويفدَّى لكيز

«يضرب هذا المثل في الدهشة من سوء الجزاء، وقد تضمن معنى هذا المثل قول الشاعر:

وإذا تكون كريهة أدعى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جندب»[3]

فصنيع صاحب المعروف يقابل بالجحود، ويحظى غيره بالثناء ويحتفى به، ومن

(١) المستقصى، ٤٣/١.
(٢) جمهرة الأمثال، ٤٤٢/١.
(٣) مجمع الأمثال: ٥١٧/٣.

أمارات ذلك استدعاء الشجاع وقت الأزمات والحروب، فإذا وضعت الحرب أوزارها فالذي يدعى إلى تقسيم الغنائم (جندب) الذي لم يشترك في الحرب فمعنى المثل متحقق ضمناً في منح المكافأة لغير مستحقها، وجاء توظيف المثل في سياق الشرط والجزاء وقد عبر الشاعر بالشطر الأول عن الجزء الأول من المثل (يحمل شن)، وبالشطر الثاني عن الجزء الثاني (يفدَّى لكيز).

- يأتيك كل غد بما فيه

«قال زهير بن أبي سلمى:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم»[1]

فتوظيف زهير جاء في سياق المقابلة بين معرفة الماضي والحاضر ومعرفة المستقبل، فالأول معلوم، والثاني مجهول، والتعبير بالعمى تأكيد لنفي صفة علم الغد وحجبه كما يحجب العمى الرؤية، أما معرفة الماضي والحاضر فتتأكد معرفتهما عن طريق (المصدر) (أعلم علم اليوم) وبدأ بالحاضر لأنه أقرب حضوراً في الذاكرة، ثم أتبعه بالماضي لتعرض أحداثه للنسيان والاستدراك في نفي معرفة الغيب يقطع توهم ادعاء ذلك، لا سيما وأن سبقه تأكيد العلم بالماضي والحاضر.

(١) مجمع الأمثال: ٥٢٢/٣. والبيت في شرح ديوان زهير، ص١٠٩، برواية (وأعلم ما في اليوم).

٤- السياق التشبيهي:

«يقول إبراهيم النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة» (١)

فاعتماد الأمثال على التشبيه تصريحاً أو تلميحاً نص عليه القدامى كما سبق وأكده المحدثون، يقول د/ عبد المجيد قطامش:

«أساس المثل التشبيه أيا كانت الصورة التي جاء عليها، أعنى سواء جاء في صورة تشبيه اصطلاحي أم في صورة استعارة، أم في صورة كناية، أم جاء في صورة الحقيقة، وفي كل هذه الصور يتضمن المثل تشبيه مضربه بمورده»(٢).

وقد استدعى الشاعر الجاهلي الأمثال موظفاً إياها في سياق تشبيهي، عن طريق عقد الصلة بين معنى المثل والمعنى الذي يرمى إليه الشاعر، فيضيف إلى بلاغة المثل براعة التوظيف فيتسنم شعره ذرى البيان بما يحقق من قيم فنية، «إن الحكمة العالية المسوقة في صورة بديعة كفيلة أن تطرق النفس، وتلج إليها من جميع أبوابها من باب العقل بالفكرة، ومن باب العاطفة بالتأثير النابع من الصدق والإخلاص، ومن باب الروح والمتعة بالجمال الفني، والتصوير البديع والجرس الرنان والإيقاع المتزن» (٣).

ومن أمثلة الأمثال التي وظفت في سياق شعري تشبيهي:

- كالقابض على الماء

«يضرب لمن ليس بيده شيء مما أخذ، قال قيس بن جروة الطائي:

أصبح من أسماء قيس كقابض ... على الماء لا يدري بما هو قابض

وقال صابي:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض ... على الماء لم ترجع بشيء أناملـه

وقال آخر:

وإني وإياكم شوقاً إليكم ... كقابض ماء لم يسقه أناملـه

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٣٠٦/١.

(٢) الأمثال العربية، د/ عبد المجيد قطامش، ص١٨٣.

(٣) أكثم بن صيفي ومأثوراته، د/ كاظم الظواهري، ص٦٦.

وقال أيضاً:

فأصبحت مما كان بيني وبينها سوى ذكرها كالقابض الماء باليد»[1]

فاستيئاس المحب من وصل محبوبه هو المعنى الذي حام حوله الشعراء مصورين إياه بمن يقبض على الماء، فهو لا يمسك بشيء لتفلته من بين أنامله، كما أن العاشق لن يحصل من معشوقه على أدنى صلة وأقل وعد، وإن جاء تصوير الشعراء – من خلال توظيف المثل – متبايناً ؛ فالأول كانت حالة القطيعة والهجر مذهبة لعقله بحيث لا يدري ما حل به، والثاني يعلن عن حسرته في عدم بقاء آثاره من وصل عبر عنها بالتنكير فى كلمة (شيء)، والثالث يدل على احتراقه شوقاً نحو من يحب، بيد أن إهمال المحبوب له، وشدة إعراضه عنه يشبه سرعة تفلت الماء من بين الأنامل، والتعبير بالسقي يشي بأن المحب كان يطمع في إطفاء نار الشوق بالوصل الذي هو بمنزلة الري الذي تحيا به الكائنات، بيد أن أقرب شيء إلى الماء – وهي الأنامل – لم ترو منه، وكذا المحب – وهو أقرب شيء إلى محبوبه – لم يحظ منه بوصل، أما البيت الأخير فيصور الشاعر فيه ما آلت إليه علاقة العاشقين إذ أصبحت سراباً، وأملاً غير منتظر تحقيقه، فلا يبقى منه شيء كما لا يبقى قطر الماء على يد القابض عليه.

على أن المثل قد جاء في رواية أخرى نصاً صريحاً فقيل (أخيب من القابض على الماء) وعلق صاحب كتاب الأمثال عليه قائلاً:

«وهذا مأخوذ من قول الشاعر:

وما أنس من أشياء لا أنس قولها

تقدم فشيعنا إلى ضحوة الغد

فأصبحت مما كان بيني وبينها

سوى ذكرها كالقابض الماء باليد»[2]

فالشعور بالخيبة والحسرة وقطع الرجاء قاسم مشترك بين المثل وبين تلك المعاني المستدعاة على تفاوت بين الشعراء في تناول المعنى.

---

(١) المستقصى: ٢٠٨/٢.

(٢) كتاب الأمثال، ص٢٥٦.

- كالكبش يحمل شفرة وزنادا

قال خداش بن زهير:

كـــم مـــبغض لي لا ينـــال عـــداوتي كـــالكبش يحمـــل شـــفرة وزنـــادا

يضرب لمن يحمل ما فيه هلاكه » [1]

هذا المثل يصور ذلك الكبش الذي تسبب في قتل نفسه بما عُلِّق في رقبته ظناً من صاحبه أن هذا الصنيع مدعاة إلى التهيب؛ بيد أن الأمر جاء على عكس ما يتوقع، فقد ذبح الكبش بما يحمل. وصورة هذا المثل وظفها الشاعر في استدعاء حالة مماثلة لأولئك المبغضين – وهم من الكثرة بمكان – كما عبرت (كم)، بيد أن الواحد منهم لا ينال من عدوه شيئاً ؛ بل إن عداوته وكراهيته سترد إليه، وستدور عليه الدوائر.

- لو بغير الماء غصصت

«يضرب في ابتلاء الرجل بمن كان يرجو منه الإغاثة والعون يقول عدي بن زيد:

لـــو بغـــير المـــاء حلقـــي شـــرق كنـــت كالغـــصان بالمـــاء اعتـــصاري» [2]

إن من كان في حلقه غصة فإنه يستعين عليها بالماء، فكيف لو كان الماء سبب الغصة فكيف يستعان بالماء على الماء؟ ذلك معنى المثل الذي وظفه الشاعر في صورة مشابهة تتمثل في إذا ما كان هناك نزاع مع الأباعد فإنه يستعان بالأقارب في فض الخصومة فكيف الشأن إذا كانت العداوة مع الأقارب، فمن يستدعي لإزالتها؟

- **كل أزب نفور.**
-

«يضرب مثلاً للرجل ينفر من كل شيء، والأزب: هو البعير الكثير الوبر، يرى طول شعره على عينيه فيحسبه شخصاً، فهو نافر أبداً، ولذلك يضرب في عيب الجبان قال النابغة:

أثـــرت الغـــي ثم نزغـــت عنـــه كمـــا حـــاد الأزب عـــن الطعـــان

(١) المستقصى، ٢٠٩/٢.
(٢) السابق ٢٣٤/٢.

وقال زيد الخيل:

فحـــاد عـــن الظعـــان أبـــو أثـــال كمـــا حـــاد الأزب عـــن الظـــلال»[1]

فالنابغة يوظف المثل في سياق التشبيه، فيصور إعراضه عن الغي الذي أصاب منه حظاً، وضرب فيه بسهم، ثم تخلصه من آثاره والذي عبر عنه بالنزع، بصورة البعير الذي طال شعر عينيه فتملكه الجبن إذ ظن أن أحداً يريد الاعتداء عليه؛ فالنفور من الغي، والحيلولة دون وقوعه، وعدم الاقتراب منه يشبه نفرة الأزب عن الطعن، فإذا كان الأزب يحيد عن الطعان جبناً وفزعاً وهلعاً، فإن الشاعر يحيد عن الغي بدافع من قوة ذاتية وإرادة داخلية.

أما زيد الخيل فإنه يأخذ من المثل صورة مماثلة لرجل جبن حتى أحجم عن القتال فلا يقر له قرار، ولا يثبت على حال خوفاً من مداهمة الأعداء، وهو على تلك الحال أشبه ما يكون بالأزب الذي لا يطيب له المقام حين يأوى إلى الظل، بل يطارده جبنه حتى يخيل إليه – من فرط خوفه– أن الشعر المدلى على عينيه – أحد يحاول النيل منه فيتأهب دائماً للفرار.

– كطالب القرن جدعت أذنه:

«يضرب في طلب الأمر يؤدى صاحبه إلى تلف النفس، يقول الشاعر:

مثـــل النعامـــة كانـــت وهـــى ســـائمة أذنـــاه حـــتى زهاهـــا الحـــين والجـــبن
جـــاءت لتـــشرى قرنـــا أو تعوضـــه والـــدهر فيـــه ربـــاح البيـــع والغـــبن
فقيـــل أذنـــاك ظلمـــا ثمـــت اصـــطلمت إلى الـــصماخ فـــلا قـــرن ولا اذن

ويقال: طالب القرن الحمار، قال الشاعر:

كمثـــل حمـــار كـــان للقـــوم طالعـــاً فـــآب بـــلا أذن ولـــيس لـــه قـــرن»[2]

فمن طلب أمراً ليس في وسعه عرض نفسه لهلاكها وإتلافها، ولهذا الأمر المعنوى صورة حسية تقريبية عرض لها الشاعر ذاكراً ملابساتها، فالنعامة ذات أذنين، ومع ذلك تطلب قرناً تشتريه أو تستبدله، لكنها رجعت بخفي حنين إذ عادت بلا قرن ولا أذن، إذ فقدت أذنها، وأشفت على الهلاك لما أرادت أن تكون من ذوات القرون، وكذا من يطلب شيئاً ليس بمقدوره أو أكبر من مقدراته، فإنه سيكون عرضة

(١) المستقصى: ٣٠٤/١. وبيت النابغة في ديوانه، ص١٢١.
(٢) المستقصى: ١٣٩/٢.

للهلاك، وربما يفقد ما يملكه.

والمثل الثاني صورة حمار يطلب قرناً فجدعت أذنه، وفقد ما كان معه، ولم يصل إلى مراده المستحيل، ويحمل البيت دعوة إلى أن يكون الطلب ممكناً حتى يتسنى تحقيقه.

- سمن كلب ببؤس أهله

«يروى: نعيم كلب في بؤس أهله، قالت امرأة من الأعراب:

أتهدى لى القرطاس والخبز حاجتى وأنت على باب الأمير بطين
إذا غبت لم تذكر صديقا وإن تقم فأنت على ما في يديك ضنين
فأنت ككلب السوء في جوع أهله فيهزل أهل الكلب وهو سمين

وهو أن يصيب أموالهم السواف فيقعوا في البأساء والضراء، ويهزلوا ويسمن كلبهم لأنه يأكل لحومها» (١).

فتوظيف المثل جاء من خلال تشبيه من يتنكر للمعروف، ويضن به على صاحبه، ولا يكترث بحال من أحسن إليه، بصورة كلب بلغ به السوء مبلغاً- على عكس ما عهد عليه من الوفاء - حتى إنه ليسمن على حساب جوع أهله.

وتتمثل الخيانة في المقابلة بين شدة سمن الكلب، وشدة هزال أهله، وكذا الصديق الذي يمنع فضله عن صديقه حتى لا يعطيه ما يقوم به أوده، - وهو الخبز - على حين أن الخائن متخم بداء الشره والتخمة المعبر عنه بلفظ (بطين). ولا يخفى مدى الإيلام المعنوى في كثرة التنعم لدى رفيق يعاني رفيقه من شدة العوز، ولعل الحكماء تنبهوا إلى تلك العاقبة السيئة، فحذروا من الإفراط في الإحسان ولا سيما - إلى اللئام - فجاء في أمثالهم «سمن كلبك يأكلك»

- سَمِّن كلبك يأكلك:

«قال بعض الشعراء:

ككلب طسم وقد تربيه يعاله بالحليب في الغلس
ظل عليه يوما يفرفره ألا يلغ في الدماء يُنتهس

يفرفره: أي يحركه برأسه ويقطعه. قال مالك بن أسماء:

هم سمنوا كلباً ليأكل بعضهم ولو ظفروا بالحزم لم يسمن الكلب

(١) ينظر: المستقصى، ١٢١/٢.

وقال عوف بن الأحوص لزهير بن قيس العبسي:

أراني وقيـــساً كالمـــسمن كلبـــه فخدشـــه أنيابـــه وأظـــافره»[1]

وقد ذكر الزمخشري البيتان الأولان ناسباً إياهما إلى طرفة، وذكر بيت عوف وبيتاً أنشده أبو زيد يقول:

مـــن ذا يـــسمن كلبـــاً ســـوف يأكلـــه فخدشـــه أنيابـــه وأظـــافره

وبيتين لحاجب بن دينار المازني يقول فيهما:

وكـــم مـــن عـــدو قـــد أعنـــتم علـــيكم
بمـــال وســـلطان إذا أســـلم الحبـــل
كـــذى الكلـــب لمـــا اسمـــن الكلـــب نابـــه
يـاحـــدى الـــدواهى حـــين فارقـــه الهـــزل[2]

فالشعراء تعاوروا على هذا المعنى موظفين المثل في سياقات متعددة يجمعها إطار التشبيه وتلتقي حول معنى التحذير من الإحسان إلى اللئيم لتمرده.

فطرفة يستحضر صورة كلب أنعم عليه صاحبه، وأكرمه أيما إكرام، حتى إنه ليقدم له اللبن الخالص في الظلام الدامس، وتلك إشارة إلى مدى عناية صاحبه به، لأنه يريد الاستعانة به على الصيد، ولشدة نكران المعروف ورد الإحسان بالإساءة، استبدل الكلب ولوغه في إناء الحليب بولوغه في دم صاحبه لما اعتراه الجوع. والحليب ببياضه رمز الصفاء، والدم بكدرته رمز الضغينة، فالكلب لم يرقب في صاحبه إلا ولا ذمة، وقد غدا هذا التصرف المشين مضرب الأمثال حتى جعله بعض الشعراء نتيجة حتمية عن طريق التعليق أي ترتيب النتيجة على الفعل بمعنى أن تسمين الكلب سيعود وبالاً على صاحبه كما في قول من قال:

مـــن ذا يـــسمن كلبـــاً ســـوف يأكلـــه يعـــدو عليـــه كعـــدو الباســـل الـــضاري

أما حاجب بن دينار فقد استدعى تلك الصورة مشبهاً بها من يستعدي عدوه عليه ليس بالإساءة إليه، وإنما بكثرة الإحسان والإغداق، وقد يبدو هذا الأمر مستغرباً إلا أن الغرابة تزول بمجرد استحضار تلك الصورة الحسية لكلب ظل صاحبه يسمنه

(١) أمثال العرب، ص٧٤.
(٢) المستقصى: ١٢١/٢، ١٢٢.

فلما أن جاع الكلب يوماً لم يجد ما يسد به رمقه إلا من جسد صاحبه.
أما عوف بن الأحوص فإنه يصور علاقته بصاحبه قيس وإحسانه إليه ومقابلة صاحبه الإحسان بالإساءة بالكلب الذي لما نبتت أنيابه وقويت أظافره من إطعام صاحبه له استعان بهما على قضم ونهش لحم صاحبه.

- صدع الزجاج

«يضرب مثلاً لما لا يجبر ولا يلتئم، قال الأعشى من المتقارب:

فبانت وقد أسأرت في الفؤاد كصدع الزجاجة لا يلتئم»[1]

فالشاعر يوظف الشيء المحسوس الذي يؤديه معنى المثل في تصوير أمر معنوى تمثل فيما آل إليه حاله بعدما بانت منه محبوبته، وما خلفه فراقها من جرح غائر فتَّ في عضده، وقطع أوصال قلبه الذي لا تزال فيه أثارة من عشق عبر عنه بالسؤر وهو ما تبقى في سويداء قلبه من حبها بعدما فارقته. وهذا الإعراض من قبل المحبوبة قد ترك فى فؤاده جرحاً لا يندمل كما أن الزجاجة إذا تصدع جزء منها فإنه مهما عولج لن يلتئم، ولن تعود الزجاجة إلى حالتها الأولى.

- الذئب يكنى أبا جعدة.

«يقال إنه لعبيد بن الأبرص قاله للمنذر حين أراد قتله:

هي الخمر يكنونها بالطلا كما الذئب يُكنى أبا جعدة»[2]

ويُضرب هذا المثل لمن يُظهر إكراماً وهو يريد غائلةً.
صور عبيد من خلال المثل كل شيء يكون مظهره غير مخبره، لا سيما في حيوان من شأنه الافتراس فيكنى أبا جعدة تعمية لمن يريد أن يأخذ حذره فيعطى الأمان، ويستدعى نموذجاً مشابهاً لتلك الحالة وهي الخمر أس كل شر فيحاول مروجوها وشاربوها إيهام الناس بغير ذلك فيسمونها بغير اسمها فيقولون عنها (الطلا).

---

(١) ثمار القلوب، ٩٦١/٢. والبيت في ديوان الأعشى، ص١٥١، والرواية فيه
فبانت وفي الصدر صدع لها... كصدع الزجاجة ما يلتئم

(٢) فصل المقال، ص١٣٠. وبيت عبيد في ديوانه، ص١١، والرواية فيه:
هي الخمر تُكنى بأم الطلاء... كما الذئب يُكنى أبا جعدة

- مواعيد عرقوب:

يقول الميداني:

«فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً ... وما مواعيدها إلا الأباطيل

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصلح من المواعيد » [1]

ويقول الثعالبي: «قال كعب بن زهير:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلاً ... وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلاَّ الأَبَاطِيلُ

فليس تنجز ميعاداً إذا وعدت ... إلا كما تمسك الماء الغرابيل

ومما نقم به عمرو بن هند على المتلمس حتى أمر فيه مما أمر قوله فى هجائه:

وطردتني حذر الهجاء ولا ... والات والأنصاب لا تئل

شر الملوك وشرهم حسبا ... في الناس من عرفوا ومن جهلوا

من كان خلف الوعد شيمته ... والغدر عرقوب له مثل[2]

وذكر الميداني والزمخشري بيتاً لكعب وبيتاً للمتلمس وزادا لغيرهما:

«وقال الأشجعي:

وعدت وكان الخلف منك سجية ... مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وقال الشماخ:

وواعدتني مالا أحاول نفعه ... مواعيد عرقوب أخاه بيثرب»[3]

فالشعراء استدعوا هذا المثل لكل حال كان خلف الوعد فيها متكرراً حتى أصبح ميسماً. وإن تباينوا في توظيفهم؛ فكعب ينقل هذا المعنى إلى وعد المحبوب الذي هو أقرب إلى الخلف منه إلى الوفاء، ومن أمارات ذلك اتخاذ المحبوبة خلف

---

(١) مجمع الأمثال، ٥/١. وبيت كعب، فى شرح قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) لابن حجة الحموى، ص٣٥، تح/ د. علي حسين البواب، ط / مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٢٣٨/١.

(٣) مجمع الأمثال: ٣٣١/٣، والمستقصى: ١٠٨/١. وبيت الشماخ في ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تح/ صلاح الدين الهادي، ص٤٣٠، ط / دار المعارف، ذخائر العرب (٣٢).

عرقوب شعاراً لها، وعن طريق النفي والاستثناء كان قصر الخلف عليها حتى غدا علماً عليها، وقد أفاد الجمع (الأباطيل) الدلالة على كثرة الإخلاف وتعدده. ولكي ينفي عنها تحقق الوعد تماماً ولو لمرة واحدة، وأن المحب لا يحصل منها على شيء ولا يحظى بوصل؛ استدعى مشهد الغربال الذي لا يمسك قطرة ماء، فالماء ينفد من خلاله، كما أن الوفاء بالوعد لا يلوى المحبوب منه على شيء، ولا يحصل المحبوب في حصول بعضه.

أما المتلمس فقد جعل الخلف شيمة عمرو بن هند، متخذاً من عرقوب مثلاً له، كي تذهب النفس في هجاء عمرو كل مذهب، ودار الأشجعي والشماخ في فلك المتلمس فجميعهم كان تشبيهه مقصوداً فيه تكرار الخلف وعدم الوفاء. ولعل كعباً أدقهم تصويراً وتأكيداً لخلف الوعد من خلال استدعاء الصورة المحسوسة.

وهناك بيت لعلقمة أورده رودلف زلهايم في سياق حديثه عن قصة المثل وهو:

وقد وعدتك موعداً لو وفت به كموعود عرقوب أخاه يثرب[1]

ويظهر الاختلاف بين كعب وعلقمة في أن الأول صور الخلف بعدما تكرر، أما الثاني فمترقب حدوث الخلف قبل وقوعه، وهو يستبعد الوفاء بالوعد عن طريق الاحتراس (لو وفت به)، على الرغم من تأكيدها الوفاء الذي دلت عليه (قد) والمصدر (موعدا) وكاف الخطاب.

- هذا حظ جد من المبناة

كان جد يجلس على فرش فسلح أحد الجلساء على الفرش فخشى جد إن قدم صاحب المنزل أن يظن به سوءاً فقطع حظه من المهاد وأرسل المثل.

«قال مالك بن نويرة:

ولما أتيتم ما تمنى عدوكم عدلت فراش عنكم ووسادي
وكنت كجد حين قد بسهمه حذار الخلاط حظه بوادي

وقال خراش بن شمير المحاربي:

ألا يتقى من كأس إن ضاع ضائع وكل امرئ لله باد مقاتله
يتأثر بالتقوى ويجتاز لنفسه إذا بادر الميقات حيناً يناوله

(١) ينظر: الأمثال العربية القديمة، ص٥٨.

كمـــا اجتـــاز جـــد حظـــه مـــن فراشـــه بمبراتـــــه في أمـــــره إذ يزاولـــــه»[(١)]

فموقف جد يستدعي لمن يعزل نفسه عن شركائه المتوقع منهم الضرر، حتى لا يظن السوء بمن لم تقترف يداه إثماً، فمالك يعرض عن قومه معلناً عن تبرؤه منهم، ويؤكد ذلك التعبير بفراشي ووسادي كي لا يتهم بأنه تسبب في تحقيق مراد عدوه. أما خراش فإنه يدعو إلى اتقاء الكأس بعدم الجلوس مع الشاربين، كيلا يظن به السوء، وينأى بنفسه عن مواطن التهم كما صنع جد حين قطع نصيبه من الفراش، والتعبير بمبراته يفيد تمام تنصله ومباشرته أمره بنفسه.

- كذي العر يكوي غيره وهو راتع

«كانت العرب إذا جربت الإبل تركت الجربي وكوت الصحاح لئلا تجرب قال النابغة:

وحملـــتني ذنـــب امـــرئ وتركتـــه كـــذي العـــر يكـــوي غـــيره وهـــو راتـــع[(٢)]

وفي رواية أخرى:

حملـــت علـــى ذنبـــه وتركتـــه كـــذي العـــر يكـــوي غـــيره وهـــو راتـــع[(٣)]

فالشاعر في توظيف المثل وجد مشابهة بين حالتين: الأولى: إبل صحاح تكوى، وإبل جربى أحق بالكي تترك، والثانية: أخذ إنسان لم يرتكب ذنباً، وترك صاحب الذنب. ولئن كان كي صحاح الإبل وترك الجربى فيه نوع من وقاية السليم من عدوى المريض فأي فائدة من أخذ البريء بجريرة غيره المذنب اللهم إلا الظلم والتحامل.

وتؤدى المفردات التي انتقاها الشاعر لأداء هذا المعنى دورها البالغ في تحقيق المراد كما في (حمَّلتني) في جانب البريء وما يستتبعه معنى التضعيف في الميم من كثرة ما يلقى على كاهل البريء من تهم، في مقابل (تركته) في جانب الجاني وما يشير إليه من تعمد إهمال الجاني وترك مساءلته فضلاً عن معاقبته، ويشبهه كي صحاح الإبل من غير حاجة وهي في عنفوان قوتها، وترك العر منها دون كي- وهي في أمس الحاجة إليه.

وقريب من ذلك قولهم: كالثور يُضرب لما عافت البقر.

---

(١) ينظر: أمثال العرب، ص٧٢.

(٢) كتاب الأمثال: زيد بن مفاجه، ص٨٧. والبيت في ديوان النابغة، ص٨٧.

(٣) مجمع الأمثال: ٤٩/٣، والمستقصى: ٢١٧/٢.

«وهو مثل يضرب للرجل يؤخذ بذنب غيره؛ إذ كانت العرب تزعم أن الجن تركب ظهور الثيران فتمنع عن الشرب وتمنع البقر معها» [(١)]، يقول الدكتور/ أحمد عبيد:

«ومن النوع الآخر الذي التفت فيه الشعراء إلى الأمثال، واستوحوا معانيها، وضمنوها أشعارهم شواهد كثيرة مبثوثة في الشعر منها على سبيل المثال تضمين جماعة من الشعراء لمعنى المثل (كالثور يضرب لما عافت البقر) منهم أنس بن مدركة الخثعمي في قوله:

إني وقتلي سليكاً ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر

وعوف بن الخرع في قوله:

هجوني إن هجوت جبال سلمى كضرب الثور للبقر الظماء

ونهشل بن حري في قوله:

أتترك عارض وبنو عدى وتغرم دارم وهم براء
كذاك الثور يضرب بالهراوى إذا ماعافت البقر الظماء

وقال الهيبان الفقيمى:

كما ضرب اليعسوب إن عافت باقر وما ذنبه إن عافت الماء باقر»[(٢)]

فأنس يوظف المثل في سياق تشبيهي يشبه فيه الشاعر قتله سليكاً، ثم دفع ديته بغير ذنب جناه ؛ بثور يضرب كل جنايته أن البقر أعرضت عن الشرب والأصل أن يضرب المعرض، ويتصرف ابن الخرع في عبارة المثل عن طريق التقديم (كضرب الثور)، والزيادة (للبقر الظماء).

أما نهشل فيزيد في صيغة المثل آلة الضرب (الهراوة)، والجمع دال على شدة المعاقبة، وقد استدعى المثل للغارم ما ليس له فيه يد أو سبب.

وأما الهيبان فيعرض للمعنى بأسلوب إنشائي سبيله الاستفهام المجازي فبعدما ذكر ضرب اليعسوب بسبب إعراض البقر عن ورد الماء تساءل مستنكراً: (وما ذنبه إن عافت الماء باقر)، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من إثارة الذهن وشحذ العقل،

---

(١) المستقصى: ٢/٢٠٤.

(٢) أمثالنا الموروثة، ص٩٢. وبيتا نهشل في (شعراء مقلون) صنعة د. حاتم صالح الضامن، ص٨٥، ط/ مكتبة النهضة العربية، الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

ومن ثم استنطاق فاعل ذلك حتى يقر بصنيعة السيء، ومسلكه الخاطئ.

ولعل الهيبان أعلى الشعراء كعباً حين أورد هذا المثل ذاكراً ملابسات معينة إذ يقول:

كالثور والجنى يركب ظهره وما ذنبه إن عافت الماء مشرب

وما ذنبه إن عافت الماء باقر وما إن تعاف الماء إلا ليضرب

إذ ذكر عقيدة العرب في ركوب الجنى ظهر الثور، فتمتنع عن الشرب، وتمنع البقر معها، فيلح الشاعر على استنكار أخذ البريء بذنب غيره عن طريق الاستفهام المجازي (وما ذنبه إن عافت الماء مشرب – وما ذنبه إن عافت الماء باقر)، ولعل في التكرار إنحاء باللائمة على من يفعل ذلك، وقد أشار إلى اقتران إعراض البقر عن الماء بضرب الثور، وديمومة ذلك الفعل بالمضارع (تعاف–يضرب)، وكأن الثور – أصبح متوقعاً لحدوث الضرب بمجرد ورود البقر الماء وصدوفها عن الشرب.

٥- السياق التفضيلي:

هناك نوع من الأمثال يمكن أن يندرج تحت التشبيه الضمني، تلك هي الأمثال التي تأتي على وزن (أفعل من)، فالمضروب به المثل يشبه الآخر على تفاوت بينهما في القلة والكثرة، فهما يشتركان في الصفة بيد أن المضروب له المثل أعلى شأناً وأوفر حظاً من المضروب به المثل. ويعد هذا من قبيل المبالغة في التشبيه، يقول رودلف زلهايم:

«ويندرج تحت التعبير المثلى المبالغة في التشبيه باستعمال صيغة (أفعل من)، وهذا النوع عبارة عن شيئين الأول منهما يتغير ولا يعرف إلا باستخدام المثل، يوضعان في عبارة تشبيهية باستخدام وصف ما في صيغة أفعل التفضيل، وبهذا التشبيه يكتسب الشيء الأول هذا الوصف بالمبالغة، في حين أن هذا الوصف في الثاني (وهو في العادة شيء محسوس) متناه، أو يزعم فيه كذلك، وهذا التشبيه يوحي بالمبالغة، بل بالغرابة أحياناً، لأن الوصف مختص بشيء لا يسمح بالتصاعد فيه مطلقاً، ومن أمثلة هذا النوع: أظلم من حية - أبصر من غراب...»[(١)].

ويقول د/ عبد المجيد عابدين: «من عادة العرب أن تبالغ في وصف الشيء، والمثل الذي على (أفعل) هو صورة من صور المبالغة عندهم»[(٢)].

وبعد رصد لأنماط تطور الأمثال العربية التي جاءت على وزن (أفعل)، والموازنة بين تدوينها قديماً وحديثاً يقول د/ عبد المجيد عابدين:

«وقد يهول الباحث في تطور المثل العربي (أفعل من)، أن يجد أن المدونات المتأخرة قد حوت منه أعداداً هائلة، في حين أن أقدم ما دون من الأمثال لم يذكر منه إلا بضعة أمثال، وأن أصحاب الاتجاه العربي القديم في الرواية والتأليف قد أوردوا عدداً قليلاً جداً من هذه الأمثال، وأن الكثرة الغالبة منها جاءت في مدونات أصحاب الاتجاه الإسلامي المستحدث» [(٣)].

وعن قيمة الأمثال الواردة على وزن أفعل ودورها في حفظ الثقافة العربية، يقول د/ عابدين:

---

(١) الأمثال العربية القديمة، ص٣١.

(٢) الأمثال في النثر العربي القديم، ص٨٩.

(٣) الأمثال في النثر العربي القديم، ص٩٠.

«ولم يلبث أن أصبح المثل على وزن أفعل سجلاً للثقافات العربية الإسلامية فقيدوا فيه المعارف الطبيعية والتاريخية والأدبية، ويبدو أن الرواة والمعلمين قد وجدوا هذا المثل تعبيراً سهلاً ميسوراً، فصاغوا فيه ما كان يعن لهم من علم ومعرفة» (١).

والأمثال الجاهلية من هذا النوع كثيرة في معان متعددة:

كالجود مثل: أجود من صائم – أجود من كعب – أجود من هرم، والبخل مثل: أبخل من مادر، أبخل من مادر، والشجاعة مثل: أجرأ من أسامة – أروغ من ثعالة، والبلاغة مثل: أبلغ من سحبان وائل – أبلغ من قس...، وسيكون الدرس حول الأمثال التفضيلية التي وظفها الشعراء الجاهليون في سياق التفضيل من خلال الشعر بما اشتمل عليه من قيم فنية ومن أبرز تلك الأمثال:

– أذل من حمار مقيد:

يضرب هذا المثل في الذل والهوان والاستكانة

«يقول المتلمس:

إن الهوان حمار الأهل يعرفه والحر ينكره والجرة الأجد
ولا يقيم بدار الخسف يعرفها إلا الأذلان عير الأهل والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فما يأوي له أحد»(٢)

فارتباط الذل بالحمار المقيد وظفه المتلمس في مفاضلة بين عير الحي والوتد إذ يجمع بينهما الذل. وقد أكد أحقيتهما بتلك الصفة وقصرها عليها عن طريق النفي والاستثناء في البيت الثاني الذي سبقه تمهيد في البيت الأول بالمقابلة بين معنيين، الأول: الهوان وهو مرتبط بالقيد، والثاني: القوة وهي مرتبطة بالحرية.

ويأتي البيت الثالث لبيان أمارات ذلك الذل، فعير الحي يسومه أصحابه سوء العذاب بدوام ربطه، والوتد جذع من الشجرة أذله أصحاب البعير بالربط فيه، فحال ذلك بينه وبين الإيراق ومن ثم الإثمار، فهو (شحيح) لا يرجى منه نفع، ولا يعيره أحد أدنى اهتمام على حين أن غيره مثمر لأنه حر غير مقيد، فهو كريم يؤتى أكله.

(١) السابق، ص٩٥.

(٢) المستقصي: ١٣٣/١. والأبيات في ديوان شعر المتلمس من ٢٠٨: ٢١١.

ولعل المتلمس، يرمى من خلال توظيف المثل – إلى بيان أن الذل – يحيق بمن يرضى به، ويستسلم له، ويتأبى على من ينكره، وكفى بالذل قيداً، وبالحرية عزاً وانطلاقاً.

«فالذل صفة تختص بها النفس الإنسانية، ولا يختص بها الحيوان أو الجماد، ولكن الصلة بين الإنسان والطبيعة صلة قوية تبدأ بالإنسان وتنتهي إليه، والصفات المنسوبة إلى عناصر الطبيعة من حيوان أو جماد هي أصلاً من صفات الإنسان وخصائصه، ولكن إلصاقها به يكون لغاية معينة كإلصاق الذل بالعير والوتد، ويكون ذلك لإظهار عنفوان العربي وإبائه ورفضه بكل قوة مثل هذه الأمور» (١).

– أشأم من الشقراء على نفسها

«الشقراء فرس يتشاءم بها الناس، قال بشر بن أبي حازم:

فأصبح كالشقراء لم يعد شرها ... سنابك رجليها وعرضك وافر» (٢)

فيوظف بشر المثل في المفاضلة بين شؤم الفرس وشؤم الخائض في الأعراض فشؤم الفرس يحيق بها وحدها، ولا يضر غيرها، والخائض في عرض غيره كذلك، فأثر الخوض يعود على المنتهك، وعرض المتطاول عليه مصون، وكما أن الشقراء لا يتخطى شؤمها موضع قدميها، فكذا الخائض في الأعراض يعود عليه إثم خوضه.

– أشأم من غراب البين:

يعد الغراب رمزاً لشؤم في عقيدة الجاهلين، وترد وذلك في أشعارهم:

«قال عنترة:

خرق الجَنَاح كأنَّ لَحْيَيْ رَأسِهِ ... جَلَمَانِ بالأخْبَارِ هَشٌّ مُولَعُ

وقال غيره:

وصَاحَ غُرَابٌ فَوْقَ أعْوَادِ بَانَةٍ ... بأخْبَارِ أحْبَابِي فقَسَّمَنِي الفِكَرُ

فقُلْتُ غُرَابٌ باغْتِرابٍ وَبَانَةٍ ... تبينُ النَّوَى تِلْكَ العِيَافَةُ وَالزَّجْرُ

وَهَبَّتْ جَنُوبٌ باجْتِنَابِيَ مِنْهُمُ ... وَهَاجَتْ صَبَاً قُلْتُ: الصَّبَابَةُ وَالهَجْرُ

وقال آخر:

تَغَنَّى الطَّائِرَان بِبَيْنِ سَلْمَى ... عَلَى غُصْنَيْنِ مِنْ غَرَبٍ وَبَانِ

---

(١) دراسات أدبية في الخطب والأمثال الجاهلية، ص١٩٧.

(٢) المستقصى، ١/١٧٩.

فكـــانَ البَـــانُ أنّ بَانـــتْ سُـــلَيْمَى وَفِـــي الغـــرَب اغْتِـــرَابٌ غَـــيرُ دَانِ»[1]

فالغراب نذير غربة وافتراق بين المحبين، ونذير شؤم حيث التكهن بالشر، وذهاب الطير إلى اليسار عند زجرها، وهبوب ريح الجنوب الشديدة، ولا يخفى ما في الجناس بين (غراب واغتراب)، (جنوب واجتناب)، (الصبا والصبابة) من إيقاع موسيقى، وإنذار الغراب للمحبين بالفرقة والغربة والهجر لاحت أماراته بالزجر والعيافة والريح الصرصر. ولما كان الغراب نذير قطيعة وهجر فقد رمز إليه بعود البان وللغربة بالاغتراب، وكأن البان والغراب المشئومين تعاضدا على بين الشاعر من سلمى واغترابها. وفي الجمع بين البان والغراب دلالة على حدة التشاؤم الذي أسفر عن بين واغتراب

- أبصر من غراب:

«يقول أبو الطمحان القيني:

إذا شـــاء راعيهـــا اســـتقى مـــن وقيعـــة كعـــين الغـــراب صـــفوها لم يكـــدر

قال ابن الأعرابي: إن العرب تسمى الغراب الأعور لأنه مغمض أبداً إحدى عينيه، وقال غيره إنما سموه أعور لحدة بصره على طريق التفاؤل» [2].

كما ضرب المثل بالغراب في الشؤم ضرب به المثل في حدة البصر، وتلك أبرز صفاته التي يتمثل بها «وإذا رحنا نتأمل الأمثال العربية وجدنا أن العرب قد برعوا كل البراعة في ضرب أمثالهم بالحيوان، وأنهم لم يتركوا نوعاً من الأنواع التي كانت تعيش في بلادهم دون أن يتمثلوا به، وكانوا يعمدون في ذلك إلى أخص صفات هذه الأنواع وأبرزها كحدة الشم في الذرة، وحدة السمع في الفرس، وحدة البصر في الغراب، وكالروغان في الثعلب، والطيش في الفراشة، والبر في الهرة، فيضربون بها أمثالهم» [3]

وجاء توظيف أبي الطمحان للمثل من خلال المفاضلة بين عين الغراب في حدة بصرها، إذ ليس عليها غشاوة، أو غبش يحول بينها وبين الرؤية، وبين عين راعي

---

(١) المنتقى من أمثال العرب وقصصهم، سليمان بن صالح الخراشي، ص١٠١، ط/ دار القاسم، الرياض، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م. وبيت عنترة في ديوانه، ص٤٨.

(٢) المستقصى: ٢١/١، ٢٢. وبيت أبي الطمحان في (أشعار اللصوص وأخبارهم) جمع وتحقيق/ عبد المعين الملوحي، ص٩٣، منشورات دار أسامة.

(٣) الأمثال العربية، دراسة تاريخية تحليلية، د/ قطامش، ص٤٠٤.

الإبل أو الغنم، التي تهدى صاحبها – بعد طول بحث وإدمان نظر – إلى انتفاء بئر صافية لم يشبها كدر، ولم يعكر صفوها غبار، وأسلوب الشرط (إذا شاء) دال على قدرة الراعي على ارتياد أماكن صافية.

– أحمق من نعامة

«قال أبو دؤاد الإيادي:

كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحها»[1]

فمن يترك شأنه، ويهمل أمره، ويعنى بغيره، يكون من الحمق بحيث يشبه النعامة التي تترك بيضها في العراء وترقد على بيض غيرها، وتقبيح هذا الأمر الذي صوره الشاعر، جاء من الترك في العراء لبيضها، في مقابل احتضان بيض غيرها، وإحاطته بجناحيها إحاطة الثوب بلابسه، فهو إمعان في الحمق، من حيث إهمال أمر مطلوب والعناية بغيره.

– أخرق من حمامه

«قال عبيد بن الأبرص:

عيوا بأمرهم كما عيَّت ببيضتها الحمامه
جعلت لها عودين من نشم وآخر من ثمامة»[2]

فالشاعر وظف حمق الحمامة التي لا تحكم بناء عشها، فتجعله من أعواد رقيقة، تطيح بها الريح، فيقع ما به من بيض، مشبهاً إياه بقوم لم يحكموا أمرهم – وكأن العجز ديدنهم – إذ لم يتمكنوا من إنفاذ أمرهم وإحكام قبضتهم، فلم يحصلوا على طائل، كما أن الحمامة الحمقاء لم تحتفظ ببيضها، بل جعلته عرضة للهلاك. فالحمق قاسم مشترك بينهما وإن كان أزيد عند القوم، لإهمالهم عقولهم.

– أظمأ من حوت

«يقول الشاعر:

كالحوت لا يرويه شيء يلهمه يصبح ظمآن وفي البحر فمه»[3]

فمن خلال توظيف المثل ينفي الشاعر الري عن صاحبه، وكلما ارتوى ازداد

(١) المستقصى: ٨٥/١.

(٢) ثمار القلوب: ٦٨٢/٢. والبيتان في ديوان عبيد، ص١٣٨، ورواية البيت الأول:
برمت بنو أسد كما... برمت ببيضتها الحمامة

(٣) مجمع الأمثال، ص٤٤٧.

عطشاً، والري الذي لا يرتوى به لا يبقى زمناً بل ينفد، ودل على ذلك التعبير بـ (يصبح ظمآن) والعجب باد فيمن يظمأ وفمه يعل وينهل من الماء الذي لا ينقطع عنه بدلالة (وفي البحر فمه)، أي أن حياته على الرغم من أنها مرتهنة بالعلل من الماء – والماء لا يفارقه– فإنه لا يبل صداه.

– أصفى من ماء المفاصل

«قال الأصمعي: هو مُنْفَصَلُ الجبل من الرملة يكون بينهما رَضْرَاض وحَصًى صغار يَصْفُو ماؤه ويرقُّ قال أبو ذؤيب:

وإنَّ حَـــديثا مِنْـــكِ لَـــوْ تَبْتَلِينَـــهُ جَنَـــى النَّحْـــلِ فِي أَلْبَـــانِ عُـــوذٍ مَطَافِـــلِ

مَطَافِيـــلِ أبكَـــارٍ حَـــدِيثٍ نِتَاجُهَـــا ثَـــشَابُ بِمَـــاءٍ مِثْـــلِ مَـــاءِ المَفَاصِـــلِ»[1]

فحديث المحبوبة كرضاب النحل الممزوج بلبن الإبل التي وضعت أولادها حديثاً، وهو أشهى وألذ وأغنى ما يكون آنذاك. وإمعاناً من الشاعر في وصف عذوبة حديث المحبوبة شبهه بعسل ممزوج بلبن إبل حديثة الولادة معها أولادها وقد دل على ذلك (عُوذٍ مَطَافِل – مطافيل أبكار – حديث نتاجها) وهذا المزاج مخلوط بماء صاف لا يشوبه كدر. فذكر التفاصيل يشي برقة الحديث وطلاوته، وحديث هذا شأنه وتلك صفته يتخطى حاسة السمع إلى حاسة الذوق، كأن سامعه أشربه. من فرط حلاوته، فالعسل المصفى، واللبن الخالص، والماء العذب، يحقق كمال الإمتاع.

– أحمق من جهيزة [2]

قال الجاحظ «هي عرس الذئب لأنها تدع ولدها، وترضع ولد الضبع، وهذا معنى قول ابن جذل الطعان:

كمرضـــعة أولاد أخـــرى وضـــيعت بنيهـــا فلـــم ترقـــع بعـــد ذلـــك مرقعـــا»[3]

هذا المثل يشبه قولهم (أخرق من حمامة)، (أحمق من نعامة) في إهمال النفس ورعاية الغير. فأنثى الذئب ترضع ولد الضبع وتدع أولادها، ولئن كان فعلها يدل على حماقتها فلعل عدم رشدها يبرر فعلها، لكنها ترسم صورة لأولئك الحمقى الذين غيبوا عقولهم فأهملوا شئونهم واهتموا بأحوال غيرهم.

---

(١) السابق، ص٤١٢. وبيتا أبي ذؤيب في ديوان الهذليين، ص١٤٠.

(٢) المستقصى: ٧٧/١.

(٣) الحيوان: ١٩٧/١.

- أمر من الآلاء

«جمع ألاءة، وهي شجرة مرة قال بشر بن أبي خازم:

فـــإنكم ومـــدحكم بجـــيرا أبـــا لجـــاء كمـــا امتـــدح الآلاء
يـــراه النـــاس أخـــضر مـــن بعيـــد وتمنعـــه المـــرارة والإبـــاء»[1]

فالمثل يضرب في الشيء يحسن مظهره ويسوء مخبره، وتوظيفه من خلال استدعاء صورة من يمدح من لا يستحق المدح، فالممدوح يخدع الناس فيثنون عليه كما يمدح الناس تلك الشجرة المرة (الآلاء) فمرآها من بعيد يسر الناظرين (فهي خضراء)، لكن مرارتها تمنع الانتفاع بها.

كذا الممدوح يغر الناس بالثناء عليه، لكنه عند المواقف التي تتطلب نفعاً لا يلوى المادحون منه على شيء، بل ربما يكون مصدر ضر. ويحمل المثل من خلال التشبيه رسالة مفادها: عدم الاغترار بالظاهر.

- أغدر من كناة الغدر

«يقول النمر بن تولب:

إذا كنـــت في ســـعد وأمـــك منـــهم
غريبـــاً فـــلا يغـــررك خالـــك مـــن ســـعد
إذا مـــا دعـــوا كيـــسان كانـــت كهـــولهم
إلى الغـــدر أدنى مـــن شـــبابهم المـــرد»[2]

يوظف الشاعر المثل من خلال استدعاء صفة الغدر المتأصلة في بني سعد والتي تشمل كل أفراد القبيلة، فليس فيهم بقية خير من وفاء، ولا أدل على تمكن تلك الصفة من جبلتهم أن الكهول أسرع إلى الغدر - وكان المفترض فيهم أن يكونوا أوفياء - وقد دل على ذلك (إذا ما دعا داع) (أدنى من شبابهم المرد). وأنى ينتظر من الشباب وفاء

---

(١) المستقصى: ٣٦٢/١، ٣٦٣.

(٢) المستقصى: ٢٦٠/١. والبيتان في ديوان النمر بن تولب العكلي، جمع وشرح وتحقيق/ د. محمد نبيل طريفي، ص٦٠، ط دار صادر، بيروت، الأولى، ٢٠٠٠م، ورواية البيت الثاني:

إذا ما دعت كيسان...

وقد وجدوا كبارهم وقدواتهم أسرع إلى الغدر، فإذا كان المخاطب يستشعر الغربة بين تلك القبيلة – وأمه منهم – فلا يغتر بحاله – لغلبة الغدر عليهم، وتسابقهم إليه كهولاً وشيوخاً وشباباً.

– أجود من هرم.

«قال زهير:

إن البخيـــل ملـــوم حيـــث كـــان ولكـــن الجـــواد علـــى علاتـــه هـــرم
هـــو الجـــواد الـــذي يعطيـــك نائلـــة عفـــواً ويظلـــم أحيانـــاً فـــيظلم»[(١)]

فزهير يوظف المثل عن طريق التقابل بين المتضادين (البخل والكرم)؛ فالبخيل ينحي عليه باللائمة، أما الجواد الحقيقي فهو الذي يعطي وإن اعترته العلل وضيق ذات اليد. وهذا متحقق في هرم، ويؤكد هذا المعنى عن طريق ضمير الفصل وصيغة المبالغة والموصول (هو الجواد الذي)، وإعطاؤه الفضل غالب عليه، لكنه حين يُظلم يضطر إلى منع العطاء عن الطالبين وهذا يعد في عرف الكرماء ظلماً. ووقت الحرمان قليل عبر عنه بأحياناً؛ أما العطاء فمستمر دوماً.

(١) السابق: ١/٥٥، ٥٦. والبيتان في شرح ديوان زهير، ص١١٤.

٦- السياق المجازي:

من الأمثال ما ضرب على سبيل الحقيقة، ومنها ما ضرب على سبيل المجاز، وعن صلة المثل بالمجاز، وعلاقته به يقول د/ عبد المجيد عابدين:

«فإذا رجعنا إلى المثل القولي في السامية القديمة لاحظنا أن عدداً كبيراً منه تضمن عبارات مجازية، وقد رأينا أن المجاز في أشكال المثل قد تجلى بنصيب كبير فظهر في النبوءة واللغز والخرافة والمثل القياسي والأنشودة، ومن ثم تنبه الباحثون إلى الصلة بين المثل والمجاز، وبالغ بعضهم فردوا أصل المثل إلى المجاز، ولكن الأقرب عندي أن يكون المجاز قد دخل في المثل بطريق مباشر اكتسبه في أثناء تطوره خلال العصور والأجيال» (١)

وقد وظف الشعراء أمثال المجاز في شعرهم بين استعارة وكناية:

أولاً: الاستعارة:

- حَلَبَ الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ

«يُضرب للرجل المجرب، قال الحارث بن ربيعة:

ولقد حلبت الدهر أشطره وأتيت ما آتى على علم

ويقول لقيط الإيادي:

مجرب قد حلبت الدهر أشطره يكون متبعاً طوراً ومتبعا

وقال آخر:

حلبت الدهر أشطره غلاما وأشيب حين حلّ بي القتير»(٢)

فالحارث يصور نفسه - وقد خبر الأمور، وجرب الأحداث، وعانى تقلبات الدهر - بالناقة تحلب شطراً، ثم تحلب آخر، حتى لا تبض بقطرة لبن، وتأتى واو القسم ولام التوكيد وقد، تمهيداً لقبول خبره (وأتيت ما آتي على علم). أما لقيط فيوظف المثل عن طريق زيادة يصدر بها بيته (مجرب) تمهيداً للمجاز، ويستدعي صورة الناقة التي يحلب منها شطراً ثم ينتقل إلى الآخر ليتواءم هذا الصنيع مع صورة الدهر التي تجيء أحداثه موافقة هوى المجرب (متبعاً)، وتحيط به النوائب وتقهره

(١) الأمثال في النثر العربي القديم، ص١٨.

(٢) المستقصى: ٤٨/٢. وبيت لقيط في ديوان لقيط بن يعمر الإيادي، شرح وتحقيق / د. محمد التونجي، ص٨٧، ط / دار صادر، بيروت، الأولى، ١٩٩٨م.

المصائب حتى يكون (متَّبِعاً) أي خاضعاً ذليلاً.

أما الشاعر الثالث فإنه في توظيفه للمثل يجمع بين الصبا والمشيب دلالة على أنه اعترته الخطوب، وانتابته المدلهمات على مر الأزمان، فهو لا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار. فالحارث وظف المثل في الدلالة على حنكته وحكمته وخبرته (أتيت ما آتي على علم)، ولقيط وظفه في الدلالة على موافقة الدهر له تارة ومخالفته له أخرى (متبِعاً، متبَعاً). والثالث وظفه في الدلالة على تقلبه بين الخطوب من غير انقطاع بين الصبا والمشيب، إشارة إلى استمرارية المواجهة.

- قد يضرط العير والمكواة في النار

«يضرب مثلاً للبخيل يعطى على الخوف قال العديل بن فرخ:

أصبحت من حذر الحجاج منتحياً كالعير يضرط والمكواة في النار»[1]

فالبخيل الذي يخشى الفقر إن أعطى - فهو من الإعطاء على خوف ووجل- يصور بالعير الذي يضرط عندما يرى المكواة في النار، فيحدث له ما يحدث من قبل أن تمسه النار. والشاعر يصور توقيه من الحجاج والمجادلة، وبعده عنهما، وخوفه مغبتهما - وهذا أمر معقول - بالعير الذي يضرط عندما يرى المكواة في النار - وهو أمر محسوس - ولا يخفى ما في هذا الاستدعاء من تقريب المعنى وتوضيح مبهمه.

- على أهلها دلت براقش

«ويروى (جنت) قال حمزة بن بيض:

لم تكن عن جناية لحقتني لا يَساري ولا يَميني رَمَتْني
بل جَناها أخٌ عليَّ كريمٌ وعلى أهلها بَراقِشُ تَجْني»[2]

يضرب هذا المثل لمن يكشف أمره لعدوه، ويستدعى لهذا المثل صورة الكلبة (براقش) التي نبحت، فدلت العدو على أهلها حتى أوقعوا بهم. والشاعر يشبه حال من يجني على نفسه بحال الكلبة التي جنت على نفسها بنباحها على طريق الاستعارة التمثيلية.

---

(١) جمهرة الأمثال: ١٠٤/٢، ١٠٥.

(٢) المستقصى: ١٦٥/٢.

والشاعر يوظف هذا المعنى عن طريق نفي التهمة عن نفسه فيما أصابه بذلك الشمول والعموم (لا يسارى ولا يميني)، واستعمال (بل) يفيد الإضراب عن هذا الظن. ولما كان تحقق الضرر من حيث إرادة النفع ملحوظاً فقد أكد الشاعر حصول الجناية ممن يتوقع منه النفع بوصفه بالأخوة والكرم، ولكي تزول غرابة هذا الأمر كان ائتناس الشاعر بجناية براقش على أهلها. فالاستعانة بالمثل قصد منه أخذ الحذر ممن لا يتوقع منه الضرر، وظاهر أن التصرف في المثل كان من أجل الضرورة الشعرية لتحقيق الانسجام الموسيقى من خلال اتحاد القافية.

وقريب من مثل (على أهلها جنت براقش) قول العرب:
«جانيك من يجني عليك – يضرب لمن يعاقب المرء بذنب غيره، أي لا ينبغي أن ينقل عقوبة الجاني إلى غيره، وقيل معناه: إنما يجنيك: أي يكسبك ويفيدك من جناية راجعة عليك لو أحدث حدثاً كالإخوة، ومن يتعلق سببه بسببك، قال ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم:

ألآن إذ أخذت مآخذها وتباعد الأنساب والقرب
أقبلت تطلب خطة عنتا وتركتها ومسدها رأب
جانيك من يجني عليك وقد يعدى الصحاح مبارك الجرب»[1]

– قلب له ظهر المجن

«أي تغير عليه وساء رأيه فيه. قال ابن أوس:

قلبت له ظهر المجن فلم أدم على ذاك إلا ريثما أتحول

وقال عدي:

بينما يغبطه أشياعه قلب الدهر له ظهر المجن

وقال آخر:

وقلبتم ظهر المجن لنا إن اللئيم العاجز الخب

(١) المستقصى، ٤٨/٢.

وقال رؤبة

أخشى عليك الوارثين بعدي إذا رأوني جدثاً في اللحد
إن يعضهوك بالدواهي الربد أو يقلب المجن من يفدي[1]

فتغير الدهر وتوالى الأزمات وتناوب النكبات استعار له الشعراء قلب ظهر المجن وجاء توظيف الشعراء لهذا المثل في أشعارهم، فأوس يصور من خلاله عدم دوام الحال، وعدى يجعل المثل مقابلاً لاستدامة النعمة التي أطاحت بصاحبها حتى غبطه عليها أشياعه، فإذا بمنغصات الدهر تكدر صفوه، وتؤرق مضجعه، قاطعة لمظاهر السعادة، ومنغصة لأسباب الهناءة.

أما الشاعر الآخر يصور اللؤم والخداع والمكر بقلب الدهر ظهر المجن، ويؤكد ذلك بقوله(إن اللئيم العاجز الخب)، وأما رؤبة فيصور شماتة الشامتين وشنآن المبغضين بقلب الدهر ظهر المجن، وقد عبر عن تغير أحوالهم وسوء طباعهم عن طريق الاستفهام التعجبي (أو يقلب المجن من يفدي)، أي لا أحد يستطيع أن تقيض من الدهر إذا أجهز على الإنسان بنوازله كما أن أحداً لا يقوى على افتدائه، وكيف يفتدى من كان الدهر له غريماً؟!

ثانياً: الكناية:

لا ريب أن المعنى الذي يرمز إليه عن طريق التلويح والتعريض أبلغ أثراً من المعنى الذي يأتي في صورة تقريرية مباشرة، ولعل معظم الأمثال ترمز إلى معنى يفطن إليه المتلقى تلميحاً لا تصريحاً، وعد هذا من أسرار بلاغة المثل على نحو ما قال أبو عبيد القاسم بن سلام:

«الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية (غير تصريح) فتجتمع لها بذلك ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه» [2]

وعن قيمة الرمز اللازم عن المثل بطريق الكناية يقول د/ أحمد عبيد:

«من الميزات الأسلوبية للأمثال اعتمادها أسلوب الرمز لتأدية مضمونها المراد،

(١)المستقصى ، ١٩٨/١.

(٢) الأمثال، تح/ د. عبد المجيد قطامش، ص٥.

فالمثل يؤدى معناه في كثير من الأحيان دون التصريح بالمعنى المراد وهذا النمط من الأداء التعبيري يعد معرضاً لثراء اللغة ونباهة المتحدثين ويشكل عنصراً من عناصر عطائها الفني» [1].

وقد وظف الشعراء الجاهليون الأمثال الكنائية، مستثمرين ما توحي به تلك الأمثال –عن طريق الرمز والإيحاء – في إخراج المعاني في صور فنية.

ومن أمثلة الأمثال الكنائية:

– لبست له جلد النمر

«أظهر القوم العداوة والشدة، وجعلوا النمر مثلاً لذلك، لذلك قال عمرو بن معديكرب:

قـــــوم إذا لبـــــسوا الحـــــد يـــــد تنمـــــروا حلقـــــاً وقـــــدا

وقال أوس بن حجر:

كـــأن جلـــود النمـــر جبيـــت علـــيهم إذا جعجعـــوا بـــين الإناطـــة والحـــبس»[2]

فعمرو يكنى عن شجاعة القوم بجلد النمر، وتتمثل شجاعتهم في اتخاذهم دروع الحديد فلا يصل إليهم أحد، ويرمز إليها بجلد النمر في قوة نسيجه وصعوبة اختراقه أما أوس فيرمز إلى شدة بأس القوم وقوة شكيمتهم بجلد النمر الذي عبر عنه بالجمع (جلود) لمواجهة تلك الجموع من الأعداء، فكأن كل فرد تنمر من فرط حدته وشدة حيطته.

– دونه خرط القتاد

«يضرب للأمر الشاق قال الشاعر:

إن دون الـــــذي هممـــــت بـــــه مثـــــل خـــــرط القتـــــاد في الظلمـــــة

و قال المرار:

ويـــــرى دوني فـــــلا يـــــستطيعني خـــــرط شـــــوك مـــــن قتـــــاد ممهـــــد

(١) أمثالنا الموروثة، ص١٠٧.

(٢) فصل المقال: ٤٨٠– ٤٨١. وبيت أوس في ديوانه، ص٥١.

وقال عمرو بن كلثوم:

و مـــن دون ذلـــك خـــرط القتـــاد وضـــرب وطعـــن يقـــر العيونـــا»[1]

فالشاعر الأول كنى عن مشقة الأمر وصعوبته ووقوعه في الظلمة بخرط القتاد، وزيادة (الظلمة) زاد الأمر عسراً، مما يجعل وقوع الأمر ضرباً من المستحيل، أما المرار فيكنى بخرط القتاد وعن تأبى من هو دونه عليه، وعدم إطاعته إياه، وإضافة الشوك إلى الخرط يشي بمدى الصعوبة. وأما عمرو بن كلثوم فيجعل خرط القتاد رمزاً للطعن والضرب المؤديان إلى هلاك العدو، وهو ما تقر به العين.

- أعز من الأبلق العقوق

«ضربوا به المثل في العز، لأنه شيء لا يكون أصلاً، والأبلق: الذكر، والعقوق: الحامل، وذكر أن خالد بن مالك النهشل قال للنعمان:

طلـــب الأبلـــق العقـــوق فلمـــا لم ينلـــه أراد بـــيض الأنـــوق

ويضرب مثلاً عن طلب ما لا يقدر عليه» [2]

فالتكنية عن محال، فالحمل ليس من طبيعة الذكر، ثم انتقل من المحال إلى الممكن فقال (بيض الأنوق) وهذا التوظيف للمثل يؤكد استحالة وقوع الأمر بعد إلحاح في طلبه.

- عبيد العصا

«يضرب هذا المثل للقوم إذا استذلوا، وهو اسم لكل ذليل وتابع، ولزم ذلك بني أسد لقول صاحبهم بشر بن أبي خازم الأسدي:

عبيـــد العـــصا لم يتقـــوك بذمـــة

ســـوى ســـيب ســـعدى إن ســـيبك واســـع

وقال امرؤ القيس:

قـــولا لـــدودان عبيـــد العـــصا

مـــا غـــركم بالأســـد الباســـل»[3]

---

(١) المستقصى: ٨٢/٢. وبيت عمرو بن كلثوم في ديوانه، ص٥٣، ط / دار صادر، بيروت، الأولى، ١٩٩٦م. والرواية فيه:

بيوم كريهة ضرباً وطعنا... أقر به مواليك العيونا

(٢) المستقصى: ٨٢/٢.

(٣) ثمار القلوب: ٨٩٥/٢، وبيت امرئ القيس في ديوانه، ص ١٤٢.

- حتى يشيب الغراب

«قال النابغة الجعدي

فإنك سوف تحلم أو تناهي إذا ما شبت أو شاب الغراب(١)

فالنابغة يوظف المثل في الدلالة على عدم تحقق الأمر واستحالة حدوثه لا بطريق النفي المباشر، وإنما بتعليق هذا الأمر على مستحيل (حتى يشيب الغراب) ولا يخفى ما لتلك الكناية من صدى في نفس المتلقى حيث تذهب النفس في استبعاد وقوع هذا الأمر كل مذهب، فضلاً عما في ذلك من تحريك الذهن وإثارة الفكر.

- لا آتيك حتى يؤوب القارظان

«القارظ هو الذي يجتني القرظ، ويقال: هذان القارظان كانا من عنزة خرجا في طلب القرظ فلم يرجعا قال أبو ذئيب:

و حتى يؤوب القارظان كلاهما وينشر في القتلى كليب بن وائل»(٢)

فالشاعر يلمح إلى استحالة وجود كليب بين صفوف القتلى كما يستحيل أوبة القارظين من رحلة بحثهما في طلب القرظ، وقريب من ذلك (إذا ما القارظ العنزي آبا) «قال بشر بن أبي خازم عند موت ابنته:

فزجي الخير وانتظري إيابي إذا ما القارظ العنزي آبا»(٣)

- لا أفعل ذلك ما أرزمت أم حائل

«الحائل: الأنثى من أولاد الإبل، إنما خصت لأن حنين الإبل إليها أشد منه إلى الشعب، قال أبو ذؤيب:

فتلك التي لا يبرح القلب حبها ولا ذكرها ما أرزمت أم حائل»(٤)

- لا أفعل ذلك ما أطت الإبل

«الأطيط كالأرزام، قال الأعشى:

ألست منتهياً عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطت الإبل»(٥)

---

(١) مجمع الأمثال: ١٥١/٣.

(٢) مجمع الأمثال: ١٥١/٣. وبيت أبي ذؤيب في ديوان الهذليين، ص١٤٥.

(٣) السابق: ١٢٩/١.

(٤) المستقصى: ٢٤٥/١. وبيت أبي ذؤيب في ديوان الهذليين، ص١٤٥.

(٥) السابق: ٢٤٦/١. وبيت الأعشى في ديوانه، ص٢٠.

- لا أفعل ذلك ما بل بحرصوفه

«قال المهلهل:

مـــا بـــل بحـــر كفـــا بـــصوفتها ومـــا أنـــاف الهـــضاب مـــن حـــضن»[1]

- لا أفعل ما حنت النيب

«قال عدي بن زيد:

لا يـــــستفيق الـــــدهر شـــــربها مـــا حنـــت النيـــب إلى النيـــب»[2]

- لا أفعل ذلك ما لألأت الغور

«أي ما حركت الظباء أذنابها، قال خداش بن زهير:

لا يبرحـــون علـــى أبـــواب ملامـــة يعـــازرون بهـــا مـــا لألأ الغـــور

أي: ما حركت الظباء أذنابها» [3]

فالشعراء جميعهم يكنون عن عدم حصول الشيء بتعليق الفعل على أمر مستحيل ويتحقق الإمتاع في الإيهام بإمكانية تحقق الفعل فإذا ارتبط بالمثل الدال على استحالة حدوثه، علم بالتبعية عدم إمكانية تحقق الفعل، فإذا ارتبط بالمثل الدال على استحالة حدوثه، علم بالتبعية عدم إمكان حصول الفعل باستدعاء شيء محسوس دلت التجارب على صدقه، فيكون القول باستبعاد حدوث الأمر أقرب إلى التصديق وأدنى إلى التحقيق.

(١) المستقصي، ٢٤٧/١.
(٢) السابق الجزء والصفحة نفسهما.
(٣) السابق، ٢٥٠/٢.

خاتمة البحث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد...

فمن خلال تلك الجولة الماتعة في رياض الأمثال العربية، وإثر تلك التطوافة في جنبات الشعر الجاهلي المضمن تلك الأمثال يمكن استخلاص أهم ما وصل إليه البحث من نتائج على النحو الآتي:

– كانت عناية اللغويين بالأمثال سبباً في حفظها من الضياع، من خلال توفير التحري والضبط الدقيق للأمثال، وشرح مفرداتها اللغوية.

– عملت الأمثال على حفظ بعض الآثار التاريخية من الاندثار، بما هيأته هذه الأمثال من اختزال صورة العصر، وتكثيف التجارب الحياتية التي مر بها ذوو التجارب من أصحاب الذوق.

–برزت القيمة الاجتماعية للأمثال في رصد بعض العادات والتقاليد التي عليها العقلية العربية، استجابة لمستجدات الحياة.

– كان لتكثيف المثل وإيجازه دور في جعل الأمثال أكثر تعلقاً بالأذهان، وأكثر سيرورة على الألسنة، مما جعل هذه الأمثال محط أنظار الشاعر العربي.

– عمد الشاعر الجاهلي إلى توظيف الأمثال العربية في شعره، تقديراً لقيمتها الأدبية والفنية، إذ توفر فيها الايجاز والتكثيف، وتصوير البيئة العربية أصدق تمثيل، إضافة إلى سيرورتها وعلوقها بالأذهان.

– تنوعت أنماط الأمثال وأنساقها الأسلوبية وأطرها التوظيفية، فكان منها: السياق التاريخي، والسياق القصصي، والسياق التعليلي، والسياق التشبيهي، والسياق التفضيلي، والسياق المجازي

وإن كان من توصية فهي توجية الدراسات إلى العناية بالنثر عامة، والأمثال خاصة، والبحث عما بين المثل والشعر من تأثر وتأثير.

وعلى الله قصد السبيل،

المصادر والمراجع

(١) الأدب العربي بين البادية والحضر، د/ إبراهيم عوضين، ط/ مطبعة السعادة، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
(٢) أشعار اللصوص وأخبارهم، جمع وتحقيق / عبد المعين الملوحي، منشورات دار أسامة.
(٣) إعجاز القرآن، الأمثال، د/ حسين نصار، ط / مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م.
(٤) أكثم بن صيفي ومأثوراته، د/ محمد كاظم الظواهري، ط/ دار الصابوني، الهداية، الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م.
(٥) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تح/ محمد حسن إسماعيل، نشر / دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤-٢٠٠٣م.
(٦) الأمثال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تح/ د/ عبد المجيد قطامش، ط دار المأمون للتراث، دمشق، د.ت.
(٧) الأمثال العربية دراسة تاريخية تحليلية، د/ عبد المجيد قطامش، ط/ دار الفكر، دمشق، الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
(٨) الأمثال العربية القديمة، رودلف زلهايم، ترجمة وتحقيق وتعليق د/ رمضان عبد التواب، ط / دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الأولى ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.
(٩) الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى، د/ عبد المجيد عابدين، ط / دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩م.
(١٠) أمثالنا الموروثة قيمتها الأدبية والفكرية ودلالتها على شخصية الإنسان العربي، د/ أحمد عبد الغفار عبيد، نشر / دار المعرفة الجامعية.
(١١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، تح/ إبراهيم صالح، ط/ دار البشائر، الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
(١٢) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، د/ عبد المجيد قطامش، ط/ المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، الأولى، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
(١٣) الحيوان، الجاحظ، تح/ عبد السلام هارون، تقديم/ أ.د/ أحمد فؤاد باشا، ط الهيئة العامة لقصور الثقافة.

(١٤) دراسات أدبية في الخطب والأمثال الجاهلية، د/ سليمان محمد سليمان، ط/ دار الوفاء، الإسكندرية.
(١٥) ديوان الأعشى حققه وقدم له/ فوزي عطوي، ط دار صعب، بيروت، ١٩٨٠م.
(١٦) ديوان امرئ القيس، اعتنى به وشرحه/ عبد الرحمن المصطاوي، ط/ دار المعرفة، بيروت، لبنان، الثانية ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
(١٧) ديوان أوس بن حجر، تح وشرح/ د. محمد يوسف نجم، ط/ دار صادر بيروت، الثالثة، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
(١٨) ديوان الحارث بن حلزة اليشكري، نشر/ فريتس كرانكو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٢م.
(١٩) ديوان الحطيئة، اعتنى به وشرحه/ حمدو طماس، ط/ دار المعرفة، بيروت، لبنان، الثانية، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
(٢٠) ديوان رؤبة (ضمن مجموع أشعار العرب)، اعتنى بتصحيحه وترتيبه/ وليم بن بن الورد البروسي، ط/ دار ابن قتيبة، الكويت.
(٢١) ديوان طرفة بن العبد، اعتنى به/ عبد الرحمن المصطاوي، ط/ دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(٢٢) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، تح وشرح/ صلاح الدين الأدي، ط/ دار المعارف، ذخائر العرب (٤٢)
(٢٣) ديوان عبيد بن الأبرص، ط/ دار صادر بيروت، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
(٢٤) ديوان عمرو بن كلثوم، ط / دار صادر بيروت، الأولى ١٩٩٦م.
(٢٥) ديوان عنترة العبسي، رخصة مجلس معارف ولاية بيروت، نفقة/ خليل الخوري، الطبعة الرابعة.
(٢٦) ديوان لبيد بن ربيعة، اعتنى به/ حمدو طماس، ط/ دار المعرفة، بيروت، لبنان، الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
(٢٧) ديوان لقيط بن يعمر الإيادي، شرح وتحقيق/ د/ محمد التونجي، ط / دار صادر بيروت، الأولى، ١٩٩٨م.
(٢٨) ديوان المتلمس الضبعي، عني بتحقيقه وشرحه/ حسن كامل الصيرفي، ص١٩٧، ط معهد المخطوطات العربية، ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م.

(٢٩) ديوان النابغة الذبياني، اعتنى به وشرحه / حمدو طماس، ط/ دار المعرفة، بيروت، لبنان، الثانية ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
(٣٠) ديوان النمر بن تولب العكلي، جمع وشرح وتحقيق د/ محمد نبيل طريفي، ط/ دار صادر بيروت، الأولى ٢٠٠٠م
(٣١) ديوان الهذليين (شعر أبي ذؤيب، وساعدة بن جؤية) ط/ مطبعة دار الكتب المصرية، الثانية، ١٩٩٥م.
(٣٢) زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود اليوسي، تح/ د. محمد حجي، د/ محمد الأخضر، نشر دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
(٣٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، قدم له/ سيف الدين الكاتب، عصام الكاتب، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.
(٣٤) شرح ديوان المثقب العبدي، جمعه وشرحه وحققه/ د/ حسن حمد، ط دار صادر بيروت، الأولى ١٩٩٦م.
(٣٥) شرح قصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) لابن حجة الحموى، تح/ د. علي حسين البواب، ط / مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٦هـ -١٩٨٥م.
(٣٦) شعراء مقلون، صنعة/ د/ حاتم صالح الضامن، ط/ مكتبة النهضة العربية، الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
(٣٧) صبح الأعشى، القلقشندي، تح/ عبد القادر زكار، ط/ وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م.
(٣٨) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، قرأه وشرحه/ محمود محمد شاكر، ط / مطبعة المدني.
(٣٩) الطفل في التراث الشعبي، د/ لطفي حسين سليم، مكتبة الدراسات الشعبية، ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة.
(٤٠) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، ط / دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
(٤١) العمدة، ابن رشيق، تح/ محمد محي الدين عبد الحميد، ط / دار الجيل، بيروت، الرابعة، ١٩٧٢م.
(٤٢) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، حققه وقدم له / د/ إحسان عباس، د/ عبد المجيد عابدين، ط/ دار الأمانة، مؤسسة الرسالة.

(٤٣) كتاب الأمثال، زيد بن مفاجة الكاتب، ط/ مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، الأولى، ١٣٥١هـ
(٤٤) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح/ د/ مفيد قميحة، ط/ بيروت، دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.
(٤٥) الكشاف، الزمخشري، تح/ محمد صادق قمحاوي، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ١٣٩٢هـ.
(٤٦) مجمع الأمثال، الميداني، تح/ محمد محي الدين عبد الحميد، ط / دار المعرفة، بيروت.
(٤٧) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تح/ فؤاد على منصور، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط/ الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
(٤٨) المستقصى في أمثال العرب، الزمخشري، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية.
(٤٩) مطارحات وقضايا في الأدب الجاهلي، د/ فتحي محمد أبو عيسى، ط/ ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
(٥٠) المنتقى من أمثال العرب وقصصهم، سليمان بن صالح الخراشي، ط/ دار القاسم، الرياض، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
(٥١) من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، د/ محمد رجب النجار، ط/ الهيئة العامة لقصور الثقافة، (٨٣)، أكتوبر ٢٠٠٣م.
(٥٢) النثر الفني في العصر الجاهلي، د/ على أحمد عبد الهادي الخطيب، د/ مطبعة الأمانة، الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٩م.